المُستشرِق

دار الكنزي للنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

مدير النشر
مهند يحى

الكتاب : المُستشرِق
تأليف : أحمد نبيه عبد التواب
تصنيف الكتاب : رواية
إخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٥٧٠٨ / ٢٠١٩
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6660 - 59 - 5

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01062104822
Alkanzy.co@gmail.com
info@alkanzy.net

المُستشرِق

رحلة إلى مثلث برمودا

أحمد نبيه عبد التواب

الإهداء

ـ إلى أمي التي ما زالت تعطيني دروسا في الصمود كل عام،
حينما يحل الخريف علينا بروائح هجرِهِ وتبقى أزهار يديها يانعة ـ

***

استهلال

نوفمبر ٢٠٤٠ ،

الكون يدور من حوله، وكأنه سيهوى على أرض مركبه الصغير.. رياح الشتاء الباردة تهمس في أذنيه مصاحبة هياج البحر الذي يندفع صوب عقله الثائر، يمناه تحمل متاعه واليسرى تتشبث بحافة مركبه الذي يقله للمرة الأولى إلى الهلاك، أعلامه الإيطالية المثبتة على الحواف تتطاير متزامنة مع شعره الأسود الناعم الذي يتمايل على جبهته الوردية.

ويتساقط التالف منه على معطفه الأسود الطويل ليسكن فيه من شدة البرد، تعطّل المحرك وانسحبت السفينة في حنان وبطء غير معهودين لهذا المحيط . معدوم من عبر به، مفقود من سلكه عامدا، هالك لا محالة ،غير مرحوم من سار دربه الذي من هيبته

يكاد أن يفتت القلب من مَهيب ذاك العجيب، الكون شظية من شظايا روحه الهامدة، والبحر شعرة بيضاء من خريف رأسه، لا منزوعة ولا معلومة كأطياف الشمس، حُرُّ الجبين كمن سبقوه إلى المحيط فظنوا أن نجاتهم به نجاتهم.

«فاليريو» ذو الأربعين عاما، الذي يستند على مركب كان ميراثًا له من أبيه، قال له ذات يوم «إن هذا المركب الصغير، إما أن يرزقه وإما أن يغرقه».

يقترب المركب أكثر وأكثر ليس يحوي سوى»فاليريو». وحيد في ذلك الطريق العصيب الذي لا مفر ولا نجاة منه، إذ أنه لم يسبق لأحد قبله أن نجى من عبوره، «مثلث الشيطان» كما يقول البعض، والبعض يدّعوا أن «بوسيدون» قد استقر به وألقى غضبه عليه. خرافات كلها في معتقد»فاليريو». حتى انشطر القارب لنصفين، القُمرة في نصف فاليريو والآخر قد سار بعيدا.

الأمواج تتقاذف بشقي المركب يمينا ويسارا .. دوامة قاسية بقدرتها أن تحطم المركب المسكين، عساه الآن ينجو .. ما الذي دفعه على خوض تلك المغامرة سوى عقل فاقد الثلثين من رجاحته على الأقل ؟!

لا أحد يختار أن يجازف إلا من ترك وراءه ماضٍ جريح وذكريات أليمة، وقلب خالٍ لا يحب ولا يأبه لأحد . ومشاعر قد دفنت في قاع أعمق من قاع المحيط الذي قد هرولت مياهه معلنة أن مركبه المحطم هذا يغرق ويبحر هذه المرة نحو القاع، أنماط الحب المختلفة التي عاشها، أشباه البشر الذين يتوغلون في أمور حياته دون إذن منه أصابوا روحه الطلقة بأسهم صائبة المرامي، موتورة بأعين الغل، ومياه المُقل كانت أثقل من المياه التي اخترقت روحه بدوامتها فمزقتها .

نصف القارب ينجذب إلى القاع أكثر وأكثر . وهو متشبث بميراثه، لا يخاف أبدا ولا يعاني كل هذه المشاق . كيف لمن يرَ حلمه سيتحقق أمامه أن يخاف ويخشى، أو أن يتسلل الفزع بداخله بعد أن قضى من المخاطرة أمرَّيها.

يتمايل القارب على جانبيه كأنه يتلوى كالمريض ويكابد الألم . حقٌ هو ألم عظيم لا ملامة عليه ولا حرج أن يكسر من منتصفه، إذ أنه ضعيف كقدم صاحبه الشجاع التي أصيبت من قبل ثلاث مرات في حوادث مختلفة فجعلت هناك زلة في قدمه حينما يسير ومن المؤكد أنها من أصابته الرجفة .

ينجذب لأسفل هذه المرة والدوامة تغرقه، يودع بقايا مركبه الحبيب لآخر مرة يمكن أن يراه فيها ويرى على حافته المتهالكة الغارقة أمه التي ماتت أمام عينيه وهو لم يستطع أن يوقفها لأنه كان فتىً في السابعة من عمره.

***

صوت الغراب الذي يقف على حافة النافذة أصاب طفلا صغيرا يجلس في زاوية الغرفة بالفزع، إضاءة خافتة في منزل ريفي يقع جنوب إيطاليا، الشمس في آخر ملمح لها وقت الغسق تلون أجنحة نذير الشؤم بأشعتها التي تظهرلون الدم، يجلس الفتى جِلسة القرفصاء ليرى أمه أمامه تكابد المرض وتتلوى ولا يستطيع أن يفعل لها أي شيء سوى أن يمسح دموعه التي تنسال على خديه من هول ما يرى، السرير التي ترقد عليه يتلفظ أنفاسه الأخيرة معها ولم يكن حنونا على بدنها تلك المرة .

« السرطان» كلمة وقعت على أذن «فاليريو»فلم يفقهها ولم يسأل عن معناها لأنها حتما قاسية كما نواح أمه الذي لا يهدأ، لم تستطع أن تجلب لنفسها علاجا أو تذهب إلى مشفى قريب أو إلى جلسات كيماوية تسقط شعرها الأسود الطويل، لأن لا أحد ارتضى أن يشتري القارب الذي تركه زوجها ونعتوه بأنه متهالك.

تتسائل كل يوم لماذا قد مات وتركها هي وصغيرها الوحيد هكذا دون قلب صلب يستندا عليه كل مساء حين تنفجر بهم الأرض فيخرج منها حميما من ألسنة الناس .

تحاول النزول مستندة على قلبها الهش ويديها المرتجفتين كارتجاف ابنها الذي يغمر رأسه بين ركبتيه، وتنزل إلى أرض الغرفة التي لا تحوي سوى سرير فقط وتحتضن صغيرها، ولعله يكون آخر عناق بينهما، تتحسس وجهه وشعره الأسود الناعم وتمرر عليه يديها في شيء أشبه بالدفء، دفء الموت، تضمه إليها في شيء من الوداع، يتنهدان، يبذلان أكثر من استطاعتهما لكي لا يخرجان صوتا وهما يبكيان في عناق بعضهما البعض.

تلمس جسده الهزيل بيدها والأخرى تمحي دموعه التي تكثر، تخبره في هدوء عظيم أنه ينبغي عليه وقتما يكبر أن ينتحر، لأن»الحياة»هي أكثر كلمة تثير اشمئزازها، تمرر يديها على وجهه وتشرع في أن تغمض عينيه اللتين اتجها نحو قدوم الليل من النافذة وتربطهما بقطعة من القماش ممزقة لا ينفذ منها نور العينين، أو يخترق ماء الجفن أنسجتها فيجعل منها مساحة للنظر، تستند مرة أخرى لكي تقف مسرعة نحو النافذة، تهرول بضعفها حثيثا إلى تلك من أقبلت بليلها إلى غرفتهما وتجلس بدلا من نذير الشؤم تلك المرة ثم تنادي عليه في لطف شديد :

ـ»فاليريو»إني أحبك يا صغيري، ولأنني أحبك سوف أفعل ما أنا مقبلة عليه، الموت يا عزيزي، الموت أهون بكثير .

تتصاعد أنفاس الفتى الصغير وتعتلي أصوات اللهث ويذهب بيديه المرتعشتين نحو غشاء أمه الذي قد وُضع على عينيه ليراها تنظر إليه في شيء من السعادة، لا تشعر بأي شيء سوى السعادة، وفجأة يتلاشى من أمام عينيه جسدها شيئا فشيء، لترتطم بتراب الأرضِ الذي كان أحن عليها من البشر، ليرتطم هو أيضا أسفل قاع المحيط الأطلنطي ليجد أن الماء الذي طالما راوده بدواماته أصبح سقفا بل سماءا لمناخ وعالم لا يعلمه .

يفتح عينيه تباعا، محاولا السيطرة على ألم في رأسه، يتحسس بيديه وهو ينهض طبيعة الأرض التي قد نزل بها ليدرك أنها رملية ليجد أمامه على مرمى البصر مدينة مهدمة أثرية بعض الشيء، يميل أغلب معمارها إلى الصُفرة، ينهض تماما واقفا على قدميه ليسمع من خلفه أصواتا غريبة وكأن هناك جيوشا تتصارع.

ينظر خلفه فيجد طائرا كبيرا يمر أعلاه، لم يشاهده من قبل، ليستقيم نظره صوب بوابة ضخمة تصل حد الماء الذي أصبح الآن سماءا للأرض التي هو عليها، تتلون البوابة باللون الأسود الكاحل وبها علامات مطموسة الملامح، «فاليريو»الآن في شيء أشبه بالحلم،

بالخيال، عيناه اللامعتان تقوده إلى تلك البوابة الضخمة، قَمَرُهُ الذي كان يتَّبِعَهُ غاب عنه وأصبح بلا هادٍ، مزيج من عِبرات الماضي، وعَبَرات الخيال يلتقيان بداخله، يتأهب ويمسح بيديه على رأسه لكي يستوعب العالم الذي هو مقبل عليه، عبر ما كان مستحيلا، وما قيل في أساطير الأولين أنه لا نجاة به، أصبح هو وحده من يمسك زمام النجاة .

قدماه تعثرت أكثر في إحدى ليالي نوفمبر الهادئة بحسب الميقات الأرضي، وهَوَت إذ هو يسير فَرِحًا هائِما لا يشعر بألمها أو تعثرها، نسمات باردة استقرت لتنعش وجهه الباسم، يلمس بهدوء ملحوظ تلك البوابة، لتتوهج الرسوم المنقوشة بها كنجوم لامعة استقرت بلمعانها كبد السماء بعد غيث غزير ويسمع من خلفها صوتا رخيما أرهبه بعض الشيء :

ـ انطق بالكلمة لكي تعبر .

أي كلمة حمقاء تلك باستطاعتها أن تَحُول بينه وبين حلمه، رُسمت على وجهه ملامح الحزن والقلق، هو لا يعرفها ،بل إنه قد أصابه التيه حتما حينما سمعها، من الذي يتحدث خلف تلك البوابة، هل هناك حياة في قاع المحيط ؟ هل من حياة في مثلث برمودا ؟ عيناه استقرتا يمينا بعد لحظات الذهول التي طالت إلى

هيكلين عظميين مكثا يستندان على البوابة بظهرهما وكأنهما عاشقين، اتجه نحوهما لعلهما استودعا سرا هنالك يقوده نحو هدفه، ولما وصل وجد يديهما متشابكتين ،فجلس جوارهما بابتسامة الحسرة، رُسمت على وجهه معتقدا أنه يوما ما قريب أو بعيد سيصبح مثلهما ولكن دون رفيق كعادته .

شعور بضيق التنفس الذي اجتاحه واجتاح أي فرد قد نزل قبله وقبلهما، إلى شعور قاس بتفريغ ما دار في عملية الهضم، تذكر هرته بالشاطيء التي كانت تحفر لتقضي حاجتها ففعل مثلها، ولما فرغ، أخذ يلملم الرمل ليغشي به مكان فعلته فإذا يديه تصطدم بصحيفة ما .

أخذ يحفر ويحفر حتى أن وجد صحائف مرتبطة ببعضها البعض مدفونة أسفل الرمل لينفض عنها التراب ويجد كلمة تتوسط الصفحة الأولى مكتوبة باللغة الإيطالية وهذا أول شيء أصابه الدهشة .

«المستشرق» كانت هي الكلمة التي تتوسط الصحيفة الأولى .

«نحن ثلاثتنا قد قمنا برحلة إلى مثلث برمودا، «جيسبر» و«ماتيلدا» و «إبرام». قد قررنا مسبقا معرفة هذا السر، فلعل» فاليريو»يأتي بعد ستين عاما من نزولنا بمثلث برمودا ويعثر على الكتاب، ليساعده

في رحلته، فإن عثر عليه فاليريو وهو المستكشف الرابع الذي سيأتي لبرمودا، فسيمنع المستكشفين من بعده أن يفكروا من الأصل في الذهاب إلى»برمودا»، وإن أتى ولم يعثر عليه، فلن ينجو وسيمنح الفرصة للمستكشفين من بعده أن يحاولوا.

عزيزي «فاليريو» إن كنت أنت من تقرأ الكتاب الذي كتب خصيصا لك، فنحن نعلم حقا أنك باستطاعتك أن تخرج من هنا إلى البر، و لأننا قد فشلنا في العودة إلى عالمنا مرة أخرى نطلب منك أن تأخذ معك الكتاب لكي يعلم العالم أجمع أننا قد وصلنا وعرفنا السر قبلك أو معك، لا يهم».

كانت تلك مقدمة الكتاب الذي وجده»فاليريو»شيء من الذهول التام الذي يعتريه بشعور غريب، يتسائل في فزع كيف عرفوا اسمه وأنه سيأتي إلى برمودا ؟ شعوره مشوب بين إلقاء الكتاب من بين يديه لأنها من المؤكد ترهات أو آثار الصدمة والفرحة، وآخر يدعوه إلى أن يفتح ذلك الكتاب الذي ذكر في مقدمته، والسؤال الأغرب الذي يمر داخل عقله أنه كيف لهم أن يألفوا كتابا كاملا تحت سماء المحيط الأطلنطي، عساه الآن يهتدي ولكن كيف ؟، لا أحد قد وضع توقيعه أسفل المقدمة، من منهم كان صاحب الفكرة الجنونية التي قد أصابته بَعدهم، ومن منهم ألف الكتاب

من الأصل، من كان بوسعه وسط هذه الصدمات أن يفكر في كتابة صحائف لمساعدة غيره، الذي لا يعلم إن كان غيره هذا سيعثر عليها أم لا، كل هذا في تساؤلات»فاليريو»، عقله الثائر لم يستوعب حتى الآن أن يفهم كل هذا، فقرر أن يفتح الكتاب ليقرأ صفحاته. يتحسس بيديه ما هو مفزع، أربعون عاما مروا من عمره لم تصبه دهشة كتلك، ثلاثة وثلاثون مروا بعد انتحارها أمامه، حبيبته التي قد تركها تبكي في بيت كان يجمعهما سويا بسبب رحلة الانتحار هذه، لم يخبر أحد سواها عن جنون فكرته أو أسباب اندفاعه نحوها، وحتى هي لا تعلم لماذا أراد أن يذهب إليه .

« فاليريو» اقرأ ما بين يديك لعلك تجد ما تبحث عنه بداخل هذه الصحائف وتنجو.

***

تنويه

«هذه الحكايات قد كتبت بسرعة شديدة، لأننا الآن في هذه اللحظة التي أكتب فيها هذا الكتاب إليك يا «فاليريو» نرى الموت أمام أعيننا ولم نستطع أن نهرب إلى مكان آخر يأوينا، فلا تحزن من سرعة التنقل، وعدم الدقة في الأسلوب»

***

الفصل الأول

«لا تُثبِّتوا أرواحكم بالشمع، ولا تقتربوا من الأصل نحو الشمس، حتى لا ترتطموا بالأرض فتكسَر أجنحتكم ولا تكسرون، أو ترحل روحكم عنكم بفقدان الأمل»

***

ديسمبر،١٩٧٩

يبدو أن الغسق قد اكتمل، فمن المعهود عنه أنه لا يخرج من بيته إلا بعد أن تذوب أشعة الشمس وتصبح تائهة بين ظلام الليل ـ على حسب ما قاله لي من قبل، أعتقد أن الجزء الغامض في الإنسان هو ما يجعلنا مستمرين في توقيره الذي عهده منا، هكذا كان حاله دائما، الغموض، أو ما طبعته عليه حياته المغلّقة عليه فأصبح شريدا تائها في معطفه الأسود الطويل، وهو يطفئ الأنوار لبيته المتواضع.

«جيسبر» هذا الرجل الذي أينعت زهور عمره أربعون ربيعا، تقوده دائما انطوائيته إلى البحث عن ما هو غير مألوف لطبيعة البشر.

أرسلت السماء من غيثها فيضا يرتطم بتراب «لندن»، لتعلن أنها أول ليلة ممطرة في الشتاء، فالغيث دائما ما يبعث بداخله بوادر أمل يمتزج أوله بأواخر دموعه ليُزيلا بدايات اليأس التي قد شبت بداخله .

مد يده ليمنع قطرات الماء المتزايدة عن رأسه بالغشاء المرتبط بمعطفه، وهو يسير كالهائم في طريقه كما اعتاد ألا يقصد وجهة،

حتى تبادر قدماه القدوم إلى الحانة ككل ليلة يظهر فيها القمر ألمعيا بعد فيض السماء . لتمتلئ شوارع «لندن»برشاقة الشباب، ورزانة كل كهل يستنشق من عبقها ما تركه فيها أيام الصبا، بعدما منعت السماء آمالها للمستمطرين، أما هو فأخذ يبحث عن دفء ترابها الذي يحمل بين حَبابه آلام عمره المنقضي وآمال قلبه الهش، العينان دامستان ببريق السماء الذي يهجع اللون الأسود ويستبدله بلون السحاب المتصادم، قدماه عاجزتان عن ترك السير، يداه موضوعة خلف ظهره إيذانا منه بأنه يتذكر ماضيه، ويتذكر معه موت أمه، نعم كان طفلا، ولكنه لم يكن سوى»جيسبر».

جزء غيبي في أمر الإنسان هو ما زاد في كينونته، غمام داكن لا يفسره إذا تعمقت في روحه، وسراب، وآلام الماضي التي تجتاح حاضره، وود وعتاب، كل هذا ما يشتت خطى قلبه إذا استبق طريقا للهروب من عناءه، وما إن انتهت السماء من عذب مياهها، انتهى معها الطريق الطويل إلى الحانة . ليفتح عالما مليئا بما لا يحب هو، ولكنه مرغم عليه، أصوات الموسيقا المرتفعة تتداخل في أذنيه تو فتحه للباب الذي يعبر به بالعالم الأغرب بالنسبة له، الأصوات الخاصة بتهليل»الآس البستوني»في أوراق اللعب حيث أن له مذاقا خاصا في اللعبة المخصصة لهذه الحانة .

عن يمينه لائحة حانة «أولد تافيرن» حيث تنص على قواعد لعبة «تافيرن» الخاصة بأوراق اللعب، وعلى أن كؤوس الخمرة لا تُقدم إلا بعد الجولة الأولى من اللعبة التي نصابها إحدى عشر جولة طويلة المدة، أسفل هذا السلم الذي يقف عليه، متسع ذلك العالم، من طاولات فارهة بها أبخس ما يقدمه الإنسان إلى صحته المرثية بعد وفاته، كما يفعل هو وأصدقاءه الثلاثة الذين ينتظرونه طيلة السهرة فيأتي متأخرا كما اعتاد واعتادوا أيضا، افتقدتهم الخمرة بقدر ما فقدتها حناجرهم المليئة بالسكر والجِعة، فأخذ بمقعده الرابع وجلس ينظر إلى «ليونارد» بقبعته السوداء ولحيته البنية الداكنة التي ما زال عليها قبلات «ماتيلدا» حبيبته السابقة التي حظى بها «جيسبر»، لا تخلو تلك السهرة الليلية من التلميح والهمز وخفقان القلوب بعد أن تتناثر أوراق اللعب على الطاولة.

يئسا هما الاثنان عن دونهما من تلك النظرات الشرهة في حب فتاة واحدة لا ينقسم قلبها ليهبهما حبا ممتزجا باللذات والشبق، اختلفا في كل شيء واتفقا عليها، حظ «جيسبر» الذي يجعله يحظى بأوراق الفوز لم يحالفه في هذه المرة كإشارة من ربه أن فترة تلقيه الدروس الغرامية من «ليونارد» انتهت وإلى الأبد .

طالت بهم تلك النزوة البلهاء في أولى ليالي ديسمبر الباردة واشتاقت حناجرهم إلى الخمر كاشتياق العاشقين الذين يجلسان ندًا لبعضهما إلى "ماتيلدا"، ففزع من على الطاولة بعدما نثر «جيسبر» أوراق اللعب معلنا انتهاء الجولة الأولى ليحظوا جميعا بزجاجات طويلة تجلوا ظمأهم، تزينت طاولتهم باصفرار تلك الزجاجات بينما تزين خياله بصورة ماتيلدا التي أبت أن يكملا معا رحلتهما فانتفض وقام، لا يعرف أي فعلة حمقاء تلك قد فعل، نظرات الناس الذين يملأون الحانة تفحصت كل ما به من شجن مكتوم، نفث سيجارته في فضائهم الفارغ وقام إلى بيته، على غير عادته يحاول إقناع قدمه أن تخرج من ذلك المكان.

ـ لن تخرج قبل أن تحتسي وحدك كل هذه الزجاجات الممتلئة «قالها ليونارد «

لم يعره انتباها وخرج إلى عالمه هو كما جاء، الشيء الوحيد الذي جعله يندرج إلى طاولتهم هو»ماتيلدا الجميلة». أغلق باب الحانة خلفه كما أغلق معه باب التناقش والتفاهم مرة أخرى ناظرا للسماء علها ترسل له مياهها الباردة فتقله إلى عالم يحبه، تشابكت نجومها الصغيرة للرائي تلك المرة لكي تملأ الفضاء السرمدي، وهو يتذكر من تلاحمها وتشابكها تشابُك خيوط العنكبوت بنافذة الإصلاحية التي قبع فيها لسنوات عديدة.

***

ديسمبر ١٩٤٩

اكتمل القمر، فلما رآه قال»هُديت»، يقبع في تلك الغرفة المظلمة مدة ثلاث سنوات متتالية دون أن تعرف قدماه طريق الشارع الذي يعبر به خارج «الإصلاحية» التي يقطنها، لم يفكر من الأصل أن يترنح بخياله بعيدا عنها.

هكذا حال الأطفال الذين يفارقون عائلتهم فيُقبض عليهم ويذهب بهم المحافظون إلى الإصلاحية، أو أن عائلتهم تفارقهم فيُجدر بهم الذهاب إليها ليكملوا تعليمهم وليحصلوا على حياة أفضل من حياة الشوراع وعصابات الأطفال فيسكنوا في غرفة ذات الأسِرَّة الضيقة التي تمتاز بدورين يغشي ثانيها أولها، وحافظة الملابس التي تجمع ملابسهم الموحدة في مكان واحد فتختلط أمراضهم الغير معنية بالنسبة لإدارة الإصلاحية من ملابسهم إلى أجسادهم ومن أجسادهم إلى مشفى لا يشفي جروحهم، ليأكلوا في إناء متشابه ويتشاركون طعاما واحدا ليس بالسيء ليرى «جيسبر» في إناءه كل ليلة جِلسته في غرفته محتضنا»ماتيلدا»جارتهم ذات الأصول الألمانية التي اتخذت هي وأمها بيت»والد جيسبر»ملاذا لهما.

ذهب أبوه باستدعاء من الجيش الانجليزي للقيام بدوره في الحرب العالمية الثانية، وعلى النقيض استُدعي والد»ماتيلدا»من الجيش الألماني للحرب نفسها، الأبوان يتقاتلا في أطماع العالم، والطفلان يلعبا كل ليلة في بيت»جيسبر»حينما تسكن الناس مخاضعهم، والأم الفرنسية الأصل التي تتزوج من والد»جيسبر»الانجليزي، تلقي بتحذيراتها كل ساعة بألا يعلو صوتهما.

كل هذا ينتهي مع انتهاءه من طعامه، ليدخل ذليلا في تمام الساعة الثامنة لمخضع النوم، وسريره الذي يستلقي عليه أمام نافذة تتشابك بخيوط العنكبوت ليتسائل أين أبوه، ولم لم يأتي مع والد»ماتيلدا»بعد انتهاء الحرب بأربعة أعوام كاملة، لطالما أصر على نقله من هذا السرير، وهم أيضا أصروا على أن هذا الطفل متدللا أكثر من اللازم، يرى أمه أمامه كل ليلة تقفز منتحرة من فوق هذه النافذة، وحينما يفيق لا يجد»ماتيلدا»في عناقه كما كانت، يوبخونه على تلعثمه في الكلام وزلة قدمه التي لم يكن له أي تدخل بها، يوبخونه على أن عائلته أَوَت عائلة ألمانية في منزلها لأب ألماني الأصل وأم من مواليد مدينة»لوتون «التي تقع في شرق انجلترا، وحينما ماتت الأم حسرة على نفسها لم تطِق والدة»جيسبر»أن يأتِ كل مدعٍ ويختطف أطفالهما، فانتحرت .

اكتمل القمر في ليلته الثالثة، يشعر بأن الشغف يتملكه لأن يرى بريقه لامعا ساطعا، لا بهتان فيه بعد اليوم، أو هُدَب تطمسه فتزيل براءته، يكفيه قبس من نور القمر بين يديه لينفض عن روحه الهشة سنين الوحدة والظلمة العشرة، يشعر بأنه كان يرى العالم أكمل منذ أن كان في جوف أمه المستسلمة، يراها أمامه حية بماء عينيها اللتين اجتمعتا على وجهها الحنون، تمكث في نافذة الإصلاحية بابتسامتها الثلاثينية الفاتنة، فيقفز من فوق سريره مناديا عليها :

ـ «أمي، افتقدتك كثيرا يا عزيزتي، جئتِ لكي تُخرجيني من هنا أليس كذلك»

أومأت برأسها أن نعم فأقبل نحوها وغزارة المطر تكثر، لم يشعر بأن المطر تساقط عليه من الأساس، لم يشعر سوى بأمه، اشتم رائحتها الذي فقدها منذ ثلاث سنوات، استلهم من صدرها حنان مئات الأيام الماضية»أمي»مازال يرددها ومازالت تبتسم ،»أمي»ما زال يكررها بصوته العالي ومازلت قابعة أمامه.

ـ «هل يرجع الأموات إلى عالمنا مرة أخرى بحق يسوع !!»

قالها جيسبر المسكين قبل أن يلحظ بأن قدماه هذه المرة قادته للوراء ثلاثين عاما، حينما جفت السماء من جديد وظهر القمر ألمعيا لا بهتان فيه.ودخل إلى بيته المتواضع.

صعد الدرج التَرِب برشاقة الطفل وروح الرجل الأربعيني الهامدة، عثرات الماضي مرة أخرى اجتاحته فنفض يديه من وراء ظهره، وفتح الباب لحجرته القاتمة، ظل يبحث عن ثمالة في قنينة مخفية، ورغم هذا لم يندم على أنه ترك نصيبه من زجاجات الخمر العذب المذاق، يأمل في أن يستمطر السماء مرة أخرى، ولكنه ليس المسيح، احتسى ثمالته ووقع مغشيا عليه فوق سريره. مرتجيا للغد ألا يأتي، ناظرا لكتبه التي ألفها عن تاريخ الشرق، دمشق، بغداد، وصوره التي التقطها في معالم مدن الشرق، وأخذ يصيح مُسكرا :

ـ»ما عاد اللقب يعنيني يا أمي، لست مستشرقا، لست جيسبر الذي يتهافت عليه الباحثون لكي يعرفوا التاريخ العربي ويضعوه في مناهج التعليم . ليتني أموت يا أمي وألحق بك.“

***

السماء صافية بلا غيوم، يتلاقى ماء البحر بحد السماء على مرمى البصر وتتوسطهما شمس الشفق التي تغشيها الأمواج تارة وتظهرها تارة أخرى، لترتمي قطرات صغيرة من هياج الموج في أحضان شراع مركب الصياد الصغيرة، الطيور تغني بلحن الصباح المبهج وتتشكل كما الدوائر فوق المركب، والبحر يبتلع ـ كما اعتاد ـ من

يهابه، الصياد دائما لا يهاب البحر بقدر ما يهاب أن يعود منه صفر اليدين، تناثرت فوق مركبه ألوان الضوء المعروفة «بقوس قزح»، لينظر فيهم جميعا فيجدهم مرآة له، كل لون منهم أصر على أن يصوره بصورة مختلفة عن شكله المتعارف، توقفت الرياح فجأة فتوقف معها مركبه حتى بكى، ينظر أمامه فيجد أن الطيور هي الأخرى توقفت عن مداراتها وثبتت في أماكنها.

ثلاث أهرامات ظهرن أمامه على مرمى البصر، قد ولجوا عالمه من منتصف شمس الشفق، في تلاقي البحر والسماء، هرول راكضا فوق الماء لتتبعه الطيور، كلما اقترب نحو الأهرامات ابتعدت الطيور، وكلما ابتعدوا يكبر حجمهم أضعافا، إلى أن ابتلعته قطرات الماء ليسكنها ولتشكل غلافا خارجيا محيطا بجسمه، ليرى ألوان الضوء السبعة تحاط أيضا بغشاء خارجي وكل منهم يحمل بداخله صورة مماثلة له. يجر داخل الغشاء إلى الأمام، ليعيده الغشاء مرة أخرى إلى موضعه الأول، فبكى مجددا .

استيقظ من نومه تلك المرة مفزوعا، لطالما راوده ذلك الحلم وأرق منامه، لم تكن تكملته كتلك التي رآها في منامه الأخير، كان يتوقف دائما عند صوره المتناثرة بفعل الضوء المنقسم.

ينهض «جيسبر» مهرولا إلى صنبور المياه ليوقظ نفسه ساكبا الماء على وجهه لتتناثر قطرات منه على المرآة، شعاع الشمس يخترق النافذة ليلون قطرات الماء بألوان»القوس»، ليرى «جيسبر» نفسه في سبعة مواطن أخرى وهو يمسح الماء من على وجهه.

يعود إلى سريره ليأخذ ما تبقى من قنينة الثمالة تلك، ليجدها فارغة فيرمي بها أرضا، ويجد ورقة مطوية فوق سريره، تردد في أن يفتحها ولكن شيئا من الفضول الذي يقبع داخله أرغمه على ذلك «اذهب حيث رأيت، الشرق». يتسائل ما الذي أتى بها جواره وهو نائم.

نزوات الشرق مرة أخرى تلحظه، عيون الماضي لم تنم عنه، ما الذي يجبره أن يسير وراء ورقة سقطت سهوا على سريره هذا، ولم يعرف من أسقطها، الشرق الذي طبع على اسمه أن يُسبق بلقب أصبح يكرهه، «المستشرق» كباحث في علوم الشرق، ومهتم بأصول الحضارات الشرقية القديمة، والسؤال الذي يراوده الآن، إلى أين يذهب، «الأهرامات» ما الذي يبرهن له أن»مصر»هي المقصودة هذه المرة، وهل من بلد يتشكل فيها حجارة أو ما شابه إلى أشكال هرمية غيرها، يخاف هذه المرة تحديدا.

أن ينصاع إلى عقله الأهوج الذي يتخذ القرارات سريعا، مكث في غرفته مئات الأيام منقطعا عن البحوث والأشياء التي لها علاقة بالتاريخ، سئم من التاريخ ويريد أن يحظى هذه المرة بحاضره ومستقبله، ما الذي سيقوله عندما يقابل «ماتيلدا» في يوم من الأيام، ولمَ يقول لها من الأصل، لقد تركته هكذا عاريا أمام رياح الحياة القاسية وارتمت في عناق فريق «الرحالة» الإنجليزية بدلا منه، ما زال يقف في غرفته هائما، مازال يبحث عن نفسه .

حينما كان في سن الخامسة والثلاثين قام بآخر رحلة استكشافية في بغداد، قابل رجلا مصريا هناك يدعى»أكرم»حينما نقص المال من جيسبر أعطاه»أكرم»هذا ما يجعله يعود مرة أخرى إلى مطار لندن، أصر جيسبر آنذاك أن يحتفظ برقمه في مصر، ذلك أن هذا الرجل سيعود قريبا بعدما تنتهي فترة عمله القصيرة مع شركته في بغداد، احتفظ بها جيسبر، وأقسم أن يرد له معروفه هذا في يوم من الأيام، أخذ يبحث عن الورقة في كل مكان في غرفته، لم يعثر عليها، لم ييئس وأخذ يدور بأرض غرفته مرة أخرى، حتى وجدها في حافظة الخطابات .

أخذ يهرول نحو السلم ليقوده إلى الشارع، لكي يتواصل دوليا مع «أكرم» ويلقي بالرقم المكتوب على الورقة في الهاتف ليرد عيله «أكرم».

ـ «سيد أكرم»

ـ «منذ مدة طويلة أنتظر سماع صوتك الرخيم أيها المفلس، تحدث ببطء لأنني كما تعلم لست أتحدث الإنجليزية بطلاقة» يضحكان سويا.

ـ «ومنذ مدة طويلة أنتظر تلك الفرصة لكي أقرر الذهاب إلى مصر أيها الرجل الكريم»

ـ «كتاب جديد !؟»

ـ «ورحلة جديدة»

ـ «أخبرني إذا في أي وقت تود الوصول .»

ـ «في أول طائرة تصل إلى القاهرة صباح الغد.»

أغلق «جيسبر» الهاتف بعدما سمع من «أكرم» أن هناك عالما مصريا اكتشف في حفريات الفراعنة أن هناك حياة أسفل قاع المحيط الأطلنطي حيث يسكن الناس جزيرة «أطلنطس» الغارقة . أخذ المستكشف عهدا أن يصل إلى موريتانيا ويشتري من هناك مركبا تقوده إلى إحداثيات مثلث برمودا، من الممكن أن يكون هذا هو السر الذي حُجب عن العالم لسنوات عديدة، حينما تسير سفينة من فوق المثلث تنغمر بين أهرامه الثلاثة الكريستالية فيجدونها في

قاع المحيط «الهادي» كما هي ولكن دون أناس يقودونها، حتى الطعام يظل ساخنا كما لو كانت السفينة أبحرت منذ ساعات قليلة، أعلم أنني أطيل عليك عزيزي»فاليريو»في كتابي هذا بما لا يروقه خيالك.

ولكن حينما أخذنا القرار في صياغة هذا الكتاب لك، توسمنا الخير فيك أنك ستخرج بالكتاب معك، نريدك حقا أن تعرف السر وتصل إلى الحقيقة التي طُمست ولم نستطع أن نمسكها بيدينا، ونريد العالم أيضا أن يعرف من نحن، ثلاثة قبعوا هنا في عالم لا يعلمونه مدة لا يقدرونها أيضا، عاشوا آخر أيامهم غرباء، ماتوا في أرض لم يعرف ترابها أجسادهم، وما عرفت أعينهم مواضع النجوم التي تسكن أسفل عالم لا يعرفونه، المجال الكهرومغناطيسي الذي استوجب إيجاده بفعل الأهرامات الكريستالية التي تمكث تحتها الآن وأنت تقرأ كتابا كُتب لك، وسُطر من أجل نجاتك في هذا المكان المُوحش، يعزل الأرض والماء، فيأخذ جزءا من الأرض يضعه في داخل المحيط الأطلنطي، ويظهر الشمس من السطح في القاع، كن حذرا .

عاد «جيسبر» إلى بيته وسجل الخطاب رقم (٥٢) إلى ماتيلدا، ليضعه في صندوق البريد الخاص بالمنزل الذي تقطنه .

«عزيزتي ماتيلدا أرسل لك الخطاب الثاني بعد الخمسين، وربما يكون آخر خطاب بيننا، ما زال القمر ساطعا في سماء لندن طالما كنتِ بها، أما إذا غِبتِ عنها، يزول القمر ويصبح مُحَاقًا ليدع الفرصة للكواكب المعتمة الصغيرة في أن تتألق تو غيابه.

لا أستطيع أن أتصور سعادتك، وعقلك يتلقى كلاما مني دون تلعثم في الحديث، شعور جيد أعرف هذا، شعرت به حينما كتبت الكلام هذا ولم تتوقف يدي للحظة كما يتوقف لساني، أراكِ تُضيئي كل نقطة سوداء في السماء بنور وجهك السني، ولمسة يديك الحنونة، وبعقلك الناضج الذي يسبق عقلي بسنوات رغم أن أعمارنا لا تتسابق كثيرا في تعداد البقاء على الأرض.

ما زال قلبك يرفضني، ومازالت عينيك لا ترى سوى «ليونارد» رغم أنه لا يحبك، ولم يحبك بقدر الحب الذي مستعد أن أهبه إياكِ إن سمحتِ لي، إني راحل يا «ماتيلدا» وأنتِ باقية بعذب عينيكِ وصفاء روحك الملهمة، لا أعرف إن كنتِ تقرأين تلك الخطابات أم لا، ولكن وجب عليّ أن أشاركك ما أفكر به، لقد اشتريت تذكرة السفر إلى مصر بعدما بعت المنزل الذي أواني لسنوات عديدة، منذ خروجنا من الإصلاحية يا حبيبتي، نعم ما زلت أصفك بأنك حبيبتي لأنني ما أحببت غيرك، إن لم أعد من

رحلتي الثالثة للاستشراق، فاعلمي أنني وددت أن أنهي حياتي عظيما كما كنتِ تودين، وستجدي صندوقا باسمي في مكتب بريد لندن يعلمك لِمَ كنت عظيما، تزينت الأرقام السرية الخاصة به، بأرقام عيد ميلادك «٢٦ / ٩ / ٢٦ / ٩»، أحبك يا ملاك الرب».

وضع الجواب في الصندوق ورحل، لم تكن حجرتها الخلفية مضاءة كما اعتاد في كل ليلة وضع فيها الجواب خفية، مخافة أن تراه فيتلعثم في كلامه أكثر مما هو عليه، ويتساقط جبينه في عرق قلبه الصديء.

***

أخذ حريته الكاملة بعدما قضى في غرفة الإصلاحية المظلمة تسع سنوات متتالية، لا يرى النور، إلا من نافذة أمه التي تقطن مكانا أمام سريره الضيق، ستة عشر عاما قضاهن في أوج الظلمة والوحشة، ما بين ظلمة منزله الذي سيعود له وأصبح يستحقه الآن، إلى وحشة الإصلاحية المروعة التي تنتابه كل مساء دامس ليله، ينظر إلى تذكرة الفئة الثالثة التي يحظى بها، يسير في طريقه إلى المطار، بتشابك خيوط الماضي بداخله، وبتشابك لعنات الحاضر، وبمستقبل لا يعرف من الأصل كيف سيكون.

يحلم طيلة حياته منذ أن كان في الإصلاحية بالحرية والمغامرة، أخبرني»جيسبر»أن في هذه الفترة التي باع فيها بيته الذي كان إرثا له من أبيه وأمه، أنه استأجر حجرة صغيرة بعدما لملم متاعه الذي سيحتاجه في سفره هذا.

ما أعظم أن تجازف، هؤلاء البشر الذين ينغمرون في نار الروتين الممل، لم يذوقوا لذة الحياة حينما تقاذف بنا موج المحيط فروّع أرواحنا، علّمني جيسبر درسا في آخر أيام سترى عيني فيها العالم الدنيوي، أنك لن تصل إلى قمة الجبل وأنت تخاف الوصول إلى قمة نقسك، كلامه الفلسفي هذا ما جعلني أخوض الرحلة معه، عاش وحيدا وكان يظن بأنه سيموت وحيدا، ولكنه الآن يصارع الموت مؤتنسا بنا.

مد يده ليحمل متاعه، وركب الطائرة التي ستصل إلى القاهرة، مستقبلا مصر بصدر رحب، كأولى خطوات الرحلة.

***

الفصل الثاني

«إذا كنت تصر على أن تحلق بعيدا عن الأرض، فلا تعد إليها مجددا إلا بنجم من السماء»

***

يناير ١٩٨٠

يجلس متأهبا لكي تطأ قدماه أرض القاهرة، مهد الحضارة في بلاد الشرق، وأحد عجائب الدنيا السبع، ليرى الأهرامات من سماءها الفاتنة ويتذكر حلمه من جديد، لا يعرف حتى الآن لماذا اتخذ القرار بأن يسافر إلى مصر، وما السر الذي ينتظره هنالك، حلم الماضي المتكرر قد قاده إليها دون حتى أن يفكر في شيء عنها، أخبرني أنه كان كذلك حينما سافر إلى بغداد.

لم يرتب أي شيء سوى أنه قرر فجأة أن يؤلف كتابا كاملا عن تاريخها، أهوج بعض الشيء ولكنه أذكى من ستقابله في حياتك يا «فاليريو» إن قُدر لك وقابلته، وصلت الطائرة والتحمت بتراب القاهرة، الهواء الذي يستنشقه فيها أول مرة، يحيي ما قد مات بداخله، ويخمد نار الوحشة والعتمة التي شبت به، حينما نظر بعينيه بعيدا فوجدها كما تخيلها في ذهنه، الودائع الإلهية التي نبتت في رأسه قد أوهبته من الفطنة ما يفي ليكتشف عالما في خياله لم يره في حقيقته.

التقت بداخله نوبات الألم وزلات الندم، وهوت روحه الهامدة لتزهر مكانها روحا أخرى طلقة، سنية، لا يكاد النور ينبض فيها حتى يتسني له فرد ذراعيه باحتضان رحلته الجديدة في «مصر»، ليقابل ذاك الرجل الخمسيني التي تتوج بشرته بلون القطن المصري الساطع، وتتزين وجنتيه باحمرار ورود الأقباط، ويتوسط أعلى وجهه أثر المساجد، تعانقا وكأنهما عاشقين، اجتمعا سويا تحت سماء القاهرة التي لا يظهر منها الشمس، يعتقد جيسبر أن السماء إن أمطرت تو نزوله لأي دولة يسافر إليها ويستكشفها، هذا بشير خير له، فلم تحرجه مياه السماء القاهرية أن تهبه من فيضها شيئا يتزين به لون وجهه، وتعتلي خصيلات شعره الطويل.

كان «أكرم» يعيش بمفرده في القاهرة، بعدما ماتت زوجته منذ عشر سنوات، دون أن ينجبا، وهو كعادة الرجل المصري، يذهب إلى عمله في الثامنة صباحا، ليعود في تمام الساعة الثالثة، ولما عرض على « جيسبر» أن يمكث معه فترة تأليفه للكتاب، تردد في باديء الأمر ولكنه بعد محاولات إقناع طالت، وافق على أن يجلس معه في مقابل أن يتقاسما ثمن الطعام، وافق «أكرم» موافقة مبدأية على أن يصبح «جيسبر» نزيلا في بيته هذه المدة

التي سيقضيها في مصر .على أن يتجولا كل ليلة في شوارع القاهرة والمعالم التي يود «جيسبر» زيارتها في مدينة الجيزة.

***

يترائى نور «مسجد عمرو بن العاص» للناظرين وكأنه أيقونة العصر، هذا لأنه ثاني مسجد قد بُني في قارة إفريقيا، تتعطر روحك بعبقه حينما ترى صليب الكنيسة التي تقبع أمامه تتوسط هلال المسجد، وتمتزج الأنوار فلا تفرق بين نور الكنيسة ونوره، وتصفو بنفسك إذا سمعت كل مساء نداء المسلمين إلى صلاتهم بأصواتهم العذبة، مع تلاقي صوت الجرس الكنسي ليشعرك بأن الرب واحد، ينظر عليهم فيمدهم ببركاته الإلهية، يسالونه فيمنحهم جميعا بلا تفرقة، من كان يشعل الشموع ويضعها أمام صورة العذراء، كمن يسجد له في الصف الأخير، حتى أنك لا تستطيع أن تفرق بين أصحاب الديانتين .

إذا وقفت على ناصية الطريق ترمقهم بعينيك، تلحظهم بطرف قلبك الذي يعشق المشهد ويريده أن يتكرر أكثر من مرة في الثانية الواحدة، جميعهم يمتازون بالبشرة القمحية، والعين البنية، حتى ملابس رجال الدين الإسلامي، ليست مختلفة اختلافا كليا عن ملابس رجال الدين المسيحي بالطقس الذي يُنتهج به الدين

المسيحي في مصر، أنقياء كماء نيلهم الجاري في وجوههم، يمتازون بابتسامة واحدة، تلحظها في وجه الغني كما أنك تلحظى في وجه فقيرهم، إذا رأيتهم حسبتهم عائلة كبيرة من التقارب الشكلي، والطبع الواحد ذو الفكاهة الجسيمة، والكرم العربي الأصيل الذي يسبقهم إلى قلبك، عفويتهم ولطفهم حينما يروك تتحدث بلغة غير لغتهم فيفتعلون أن لسانهم طلق في استخدام اللغة، عزة أنفسهم في أن تمنحهم أكثر مما يستحقون من الأموال، وأبهتهم حينما يروق لهم سماع كلماتك التي تمدح أخلاقهم بابتسامتهم العظيمة، يتوسط كل ذلك سيارات بعضهم الفارهة، التي يعتني بها فقيرهم، ليأكل من أصناف طعام تُباع في حانوتٍ ضيق، يجاور هذا الحانوت الضيق.

مساحة شاسعة لا يستطيع نظرك أن يأتي بأولها حينما ترمق الناس وهم يدفعون من أموالهم المئات والآلاف لكي يشبعوا في هذا الحانوت العظيم، الجاران يبيعا الطعام، هذا لغني وهذا لفقير، وكلا الصنفين يشبع وراضٍ بما قسمه الإله له، طرقاتهم تتشعب في أولها بأزقة وحواكير ضيقة المساحات، إلى أن تنتهي بهم في نهاية المطاف إلى ما يشبه لندن في معمارها، اندهش « جيسبر» حينما علم أن مصر هي الدولة الثانية بعد إنجلترا تدخلها أنظمة السكك

الحديدية، يا له من كتاب سيحمل الكثير والكثير من المعالم، وصف لي «جيسبر» ذات يوم وأنا على متن مركبي المتواضعة، أن هذه الدولة فاقت ما يتخيله من حضارة عريقة، كان دوما يستمع عن أحاديث بناء الأهرامات الثلاثة وأنها أحد عجائب الدنيا السبع، ولكنه أبدا لم يكن يتخيل حجمها المهول، ودقة بنائها، حتى أنه أصابه الغثيان حينما صعد بعض المناطق التي ليست بعيدة عن الأرض حينما زارها .

عرف من « أكرم» آنذاك، بعد أن انتهى من رحلة الأهرامات، أن المستكشف المصري الذي خاض رحلة إلى مثلث برمودا واختفى عن الأنظار، يقول بأن هناك ثلاث أهرامات أخرى في هذا العالم يتوسطن مثلث برمودا في المحيط الأطلنطي،

ـ «ماذا تقول، ثلاث أهرامات في المياه» قالها «جيسبر» مفزوعا .

أجابه «أكرم» أن الثلاث أهرامات اللائي يتوسطن المثلث، قد أبرموا على عازل مغناطيسي، يعزل الماء عن قاع المحيط الأطلنطي ليحدث هنالك فوة مكانية، بإمكانك أن تتنفس وأنت تحت هذه المثلثات، وأن فقاعات غاز الميثان، تتفاقم حتى بإمكانها أن تبتلع الطائرات التي تعبر من فوقها بمئات الكيلومترات .

وقتها استرجع «جيسبر» خياله مرة أخرى إلى حلمه المنطوي داخله، كان في شك من أن يقول ذاك الحلم لـ «أكرم» وفي تيه من أمرِه، عساه الآن يهتدي، قد حلم بأهرامات تتوسط المحيط وهو يجدف بمركبه ولا يصل إلى شاطيء، راوده الحلم أكثر من مرة، مالت عيناه إلى الغرابة، ومن الممكن أن تكون كل هذه المشاق وسفره إلى مصر بداية لعالم مغامر جديد، بعيد عن الشرق ككل .

في غرب الكرة الأرضية يقبع سر دفين، سهل أن تصل إليه لأنك إن اقتربت منه يسحبك هو إليه، رحيل الذات إليه أشبه بالهلاك الموجب، يتحتم عليك أن تصنف نفسك بطلا، مغامرا، ملاكا من السماء إن ولجت باب الدخول إلى هذا العالم، «جيسبر» هو بطل ذاك القرن الذي تكاتفت معه لكي أصل إلى عقله الثائر الذي لا يهدأ أبدا، تتلون خلايا عقله، بالمخاطرة، أصابعه ودت لو تمسكت بالحياة بقدر ما تتمسك بالجنون، لذلك قد أخذ يبحث كثيرا عن مثلث برمودا، عن الأهرامات الكريستالية، العازل الكهرومغناطيسي، غازات الميثان.

ولكنه تمكن من معرفة كل هذا ولم يتمكن من شيء وحيد، لماذا يختفي الإنسان ولا تختفي السفن أو الطائرات ؟! مع أنهما كانا سويا في نفس المكان وفي نفس الزمن، لم يصل إلى حل، شيء من الغموض اجتاحه، اعتراه صدأ القلب الذي دُفن مع رحيل «ماتيلدا» عنه، يعيش في حياة أشبه بكابوس يحاصره في كل شيء، ومع ذلك فهو لم يهدأ عن كتابة المعالم المصرية القديمة والحفريات، والأهرامات، ولكنه قضى شهران كاملان في مصر، لم يلحظ وجود أي من الأثريات التي تنص بمعلومات لجزيرة أطلنطس الغارقة، وما علاقتها من الأصل بمثلث برمودا، هو يعشق تلك الأمور الغامضة، كما حبيبته «ماتيلدا» تذكرها حينما لمعت نجوم السماء بمصر في ليلة اختفاء القمر، فشرع في كتابة الجواب الثالث بعد الخمسين لها :

«حبيبتي» ماتيلدا «بضعة أيام قليلة وينتهي شهر مارس وأنتهي من عامي الأربعين، وأزداد عمرا فوق عمري، وأزداد سنة أخرى بدونك يا حبيبتي، أراكِ كل ليلة دون أن أنساكِ، فهل نساني قلبك يوما؟ لأول مرة منذ خروجي من الإصلاحية أحتفل بيوم ميلادي دون رفقتك، هذا آخر جواب سأكتبه لك، كان هناك شيئا ما بعقلي، يخبرني أنني سأموت في رحلتي هذه، وها هو

التخمين أوشك أن يتحقق، أنا مسافر إلى حيث ما لا أعلم، وأعلمك أنني انتهيت من كتابي الأول في هذه الرحلة وهو عن مصر، يتبقى كتابا آخر، وددت لو كتبته أنا، بعت المنزل يا حبيبتي، لأنني كنت أعرف أن موتي قريب، وكنت أعرف جيدا أنني لن أعود من رحلتي تلك . أحبك، المخلص لك دوما، جيسبر»

***

ـ «قد نسوا أن يخبروني أن الليل هنا يأتي بسرعة جدا»

قالها «فاليريو» حينما أغلق صفحات الكتاب، شعور بالتضجر يُلم به كما لو كان قد أيس من رحلته، يستمتع في بعض الأحايين بالتشابه بينه وبين « جيسبر» في زلة قدمهما، وفي انتحار كلا من الأمين أمام أعينهما، تشابك عقليهما بخيط رفيع عبر من بين أسراب الزمان إلى ملتقى ومأوى واحد ـ المخاطرة ـ ولا شيء سواه يربطهما ببعض غير محاكاة القدر في حياتهما المريرة، شعر بأنه يقرأ رحلته هو، وليست تخص أي شخص آخر غيره، بكى أحيانا حينما لحظ أمه بديلة لأم «جيسبر» في نافذة الإصلاحية، وأحيانا ضحك من سخرية القدر الذي يتكرر ما بين اثنين لا يعرفان بعضهما البعض، قد آويا هما الاثنين عن دونهما وصعدا جبل الموت حينما انفك

الناس مهرولين في الميادين بدون سبب، الآن فقط قد عرف سبب الاختلال الكوني الذي حدث بالأرض، يريد أن يخرج من هنا بكل طلاقة دون أن يخوض الرحلة من الأساس، ويخبر العالم أجمع أنه كان على صواب، وأن هذا الاختلال ناتج عن ما دار في مثلث برمودا في سنين عدة لا يعلمها أحد غيره، يشعر أنه قد ذهب إلى هذا المكان من قبل، حيث نكشف بالأرض كائنات غريبة، تتشابه في تكوينها مع بني البشر.

واتجاهات عصيبة لملمت بقايا دول شُرذمت فوضعتها في مصاف الدول المتقدمة وخسفت بدول السلطة العليا أرضا، وبدون عناية لها، «مصر» الذي يتحدث عنها الكتّاب بعد معاهدة السلام بينها وبين الكيان الصهيوني، أصبحت الآن تسود ثلاثة أرباع العالم، بعدما اختار شعبها رجلا من طينها يكون ربان سفينتها، بعد سنين الجهل التي طالت عليهم، اختلت الموازين في لمح البصر، وهو يستعجب الماضي الذي يصف عظمة إنجلترا، وقصة صعود مصر، اللذان يستبدلا موضعيهما الآن .

قرر «فاليريو» أن يترك أمر الكتّاب قليلا وينظر إلى تلك التكوينات التي تحاوطه من العالم الغريب الذي ينظر لنفسه من خلاله هل هذه المدينة القابعة أمام عينيه اللتين لا يصدقا موقعه

من العالم،تكون «أطلنطس الغارقة» وإن كانت، فأي بوابة ضخمة رسخت برمل البحر المعزول عن الماء لتصل إلى ما لا يراه في امتداد بصره من ارتفاع، إلى أين ستنتهي قصته، وإلى أين انتهت قصة الثلاثة الذين قاموا بالرحلة، وهو حتى الآن لا يعرف عنهم أي شيء سوى ما كُتب عن «جيسبر» فحسب، ورق اختلط بحبر الماء لينسجا من مخيطة المستكشفين أرواحا مسطرة بين يديه، إرهاق العالم كله اجتمع فوق عاتق روحه الخامدة المنطفئة، وظلمة الكون أرادت أن تحيا بعبثهم في إحداثيات الكون المتلاقي في عالمهم، قرر «فاليريو» أن يفتح الكتاب من جديد، يقلب بين كفيه صفحات لا يريدها، تذكره بماضيه وتذكره أيضا بعائلته.

***

ـ «إلى أي دولة تود أن تذهب هذه المرة»

قالها «أكرم» حينما رأى صديقه الإنجليزي يرتب متاعه إيذانا بالرحيل.

ـ «إلى السودان أيها الرجل الكريم»

ـ «ما استطعت أن أفي بكرمي مدة أربعة أشهر مكثت فيهن عندي»

يتوهج لسان «جيسبر» قائلا:

«وهل هذا الأمر لا يكفي لراحل مثلي يتنقل بين كفي الإله إلى حيث ما يعلمه»

ـ «هل قصرت معك»

ـ «بل قصرت مع نفسي يا أخي الأكبر حينما عشت كل هذه الأعوام هائما بلا سبيل أو ملاذ يأويني، سأسافر إلى السودان»

استعجب «أكرم» حينما سمع من «جيسبر» ما سمع فاقترب منه وربت على كتفه وأرراد أن يحل عقدة لسانه بما لا يستطيع :

«ولماذا تذهب إلى الموت يا بني، أعرف أنك تندهش مما أقول، ولكني أعرف من الإنجليزية والفرنسية، ما يؤهلني لنطق كلمات «أطلنطس» و «برمودا»، وخطابات «ماتيلدا» التي كتبتها بيدك وتحتفظ بنسخة منها في حقيبتك قبل أن ترسلها إليها، أنا لم أنجب، ولو كنت أنجب ولدا، لكان حري بي أن آتيه إليك ليتعلم الوفاء منك، والمجازفة أيضا»

ـ «هل ستخبر أحدا» قالها «جيسبر» مرتجيا من «أكرم» ألا يفعل .

ـ «سأخبر زوجتي فقط، حينما أذهب إليها»

ـ «ولماذ تجزم على ذلك»

انهمر «أكرم في بكاء السنوات التي لم يرى فيها حبيبة عمره بجواره، وأخذ يوضح لـ «جيسبر» أنه يشعر بالموت في كل مكان، وأن «جيسبر» سيرحل من جيرته، مصاحبا روحه التي ستهرب منه، احتضنا بعضهما البعض قبل أن يقوم السيد «أكرم» بمنح « جيسبر» صليبا مصري الصنع، ليحفظه في رحلته الشاقة .

كانت «ماتيلدا» آنذاك تستعد للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، مع فريق الرحالة الإنجليزي التي أصبحت عضوا مهما به، في الوقت الذي تزامن حجز تذكرة الطيران إلى السودان، كان بإمكان «جيسبر» أن يسافر إلى برمودا من طريق آخر، ولكنه قرر ذلك لكي لا يكتشف أحدا عما وراء رحلته التي أنته صدفة، الصدفة أحيانا تأتيك حينما تفقد الأمل، وتكره الناس، هدية ربانية تتوجك إلى العلا حينما تضل روحك فتستقيم بها، فتزيل عنك ما أصابك من بلاء محتم، وكأنه يمنحك أنت وحدك عن غيرك ما يدهشك، وترتاح له روحك، أسفار الإله التي تنالك برحمتها وتبعد عنك ما يعزي نفسك الرحبة، روحانيات الإله التي تسكن أرض السودان، هي من وضعت بداخله رواسخ الحب والأمل في أن الإله لن يتركه، ويعبر به نحو ما تصفو إليه روحه .

حينما تعلقت طائرة «جيسبر» في يد الرب مسافرا إلى السودان، تعلقت طائرة «ماتيلدا» في اليد الأخرى لكي يتعانقا في السحاب، كلٌ إلى غايته المُثلى، كلٌ إلى مُبتغاه الأول، وعد الرب قائم على أن يلتقيا مرة أخرى، وهو مُصدق لذلك الوعد، سافر إلى السودان لكي يبعد الأنظار عنه ولكي تعتلي بخيال الجميع فكرة أنه سيكتب عن الشرق أكمل، ولكنه سينحرف كثيرا عن ما يمتلكه الشرق من حضارات أصيلة ويذهب إلى أساطير الغرب .

***

لربيع إنجلترا شيء مميز كما أخبرني «جيسبر»، قطعة من جنة الإله على الأرض، تمتاز بباقة الورود التي تحبها «ماتيلدا»، قد لملم روحه المبعثرة بين شقي الماضي والمستقبل إلى حاضر الحب والإنسانية، حيث التهمته نيران الشوق المنبعث قدما من حجرةٍ جمعتهما سويا في بيته، ليجتمعا هذه المرة في «هايد بارك» المنتزه المفضل له في مدينة لندن، الذي يدخر طوال العام ما يجلبه من ثمار رحلات الاستشراق، وينفقه إلى ثمار حبه في يوم ميلاد «ماتيلدا»، يتسم الحب هذه المرة بشيء من المرارة، لأنه سيجلس وحده في نزهته بالحديقة بعدما تعانقت أيادي «ماتيلدا» و «ليونارد»

ولوّحت لـ «جيسبر» بالفراق والرحيل، من الأصل أنهما لا تربطهما علاقة الحب، بل كان يُخيل إلى «جيسبر» ذلك من فرط مشاعر الأخوة التي تتلقاها «ماتيلدا» منه، ما كانت لتفقه أن ما يصنعه «جيسبر» لأجلها هو حب أفلاطوني، ينتزعه من كتب التاريخ والمسرحيات الشكسبيرية، كما لو كانا « روميو» و «جولييت» ولكنها ارتضت بعد كل الحب هذا أن تضعه مكانة الأخ والجار، كان يخشى عليها عيون الناس إذا نظرت لها دون قصد أو بقصد، ليجلس الآن وحيدا تائها بين خضرة الأرض من حوله واحمرار الورود التي بين يديه، التي تشبه خجله الوردي حينما يطريه أحد الناس بعد قراءة كتبه.

لم تأتي، هو قد يعلم مسبقا أنها لن تفعل، ولن تترك حبيبها «ليونارد» لتأتي إلى «جيسبر « الذي يقيم لها احتفالا صغيرا بيوم ميلادها، ولكنها فعلت، جلست جواره دون أن يتحدثا والشغف يملأ عينيه، تعاهدا وهما في الصبا أن تكون الناس من معدن الفضة، وأن يكونا سويا بمثابة ألماس المعادن في لندن، يتعاملا على هذا الأساس، سندت برأسها على كتفه، لتُخرج مع زفيرها المتزايد هموم رحلتها الزائفة في حب «ليونارد» أخبرته أنه طيلة الشهر ونصف، كان يخدعها، حينما دخلت إلى مكتبه ووجدت

جوابات من امرأة أخرى مُعبئة بالعطر الفرنسي، وأصبحت هي ضحيته الجديدة، ما زالت تعشق نبرة صوته الملهمة، ويداه التي شُبِّه لها فيهما أن بهما عشق الدنيا ومن عليها، ليتفوه بما يدور في عقله وقلبه لأول مرة :

ـ «قلت في سابق حديثنا أنك تمتازين بالغباء، أحبك يا» ماتيلدا «منذ أن كنا صغارا نلهو بأغاني الطفولة ونلون حائط بيتنا بألوان الطبيعة» .

اعتلت سمات الانبهار على وجه «ماتيلدا» ما كانت لتتوقع أن يتفوه «جيسبر» بما تفوه، تركت كتفه الحنون شيئا فشيء كما أنه استدعى نفسه في سمات الوحدة كما كان، نظر بجواره فوجد الطيور التي تسير كما الدوائر من فوقه توقفت عن سيرها وثبتت في أماكنها مد يده وتشبث بـ»ماتيلدا» حبيبته لكي ينجو معها من هذا الأمر العصيب، فوجد غشاءً من الماء يحاوطها والماء يبتلعهما بين الأهرامات الكريستالية ليجدا أربعة عشر دائرة حولهما واحدة يقبع بها نتلاقى مع أخرى تقبع بها «ماتيلدا».

شمس الشفق تهبط من بين الأهرامات الكريستالية لتفرق بينهما كأصلين، ألوان قوس قزح يلون كل لون فيهم غشاءً من أغشية الأشياء التي تحيط بأمثالهما المنقسمة بفعل الضوء، نظر إلى «

ماتيلدا « فلم يرها، ذُعر حينما اقتربت منه أشعة الشمس فالتهمت يده اليسرى وقدمه اليمنى، أخذ يصيح بأعلى صوت ممكن :

«أخرجوني من هنا، أعيدوني من برمودا مرة أخرى»

حتى أن أنته مضيفة الطيران لتوقظه حينما هبطت الطائرة مطار مدينة الخرطوم .ليرى عالما عربيا شرقيا جديدا، يعبر به إلى حلمه .

***

انتهى من الفترة التي قدرها لنفسه ماكثا في السودان، لم يستحمل حرارتها، ولا جوها المشمس بالليل وبالنهار، قضى أسبوعين كاملين في رحاب المسلمين الذين ينتهجون نهج التصوف، عشق أناشيدهم الذي لم يفهمها ولكنها دخلت قلبه ـ كما قال لي ـ من أول مرة سمعها فيها، المتصوفة هنالك ينشدون أناشيدهم في الشوارع عابرين، في الميادين، في المساجد التي تسكنها أضرحة رجال دينهم الذين ارتقوا في عبادة ربهم، في بيوتهم، يسيرون كما السرب في الشوارع بآلاتهم الشرقية يعزفون مدحا في نبيهم، وكأنه يسمعهم، فرحين ،يفعلون وكأنهم سيلحقون بعد احتفالهم بالفردوس، قضى معهم يسمعهم طيلة الأسبوعين، قبل أن يذهب إلى شركة الطيران ويحجز طائرته لأنجولا، كي يكون على خط مستقيم يفصله ببرمودا.

أخبرتني «ماتيلدا» آنذاك أنها كانت تتجول في الولايات المتحدة الأمريكية في ذات الوقت الذي قضاه «جيسبر» في السودان، لكي يلتقيا في عالم لا يعرفهما ولا يعرفاه، حتى وصل جيسبر إلى أنجولا، آخر محطة تفصله عن حلمه.

***

الفصل الثالث

«سَلامٌ عليكِ، افتقدتُكِ جِدًا»

الشاعر الفلسطيني: محمود درويش

ديسمبر ١٩٨٠ .

أعشق صوت تلاطم الأمواج بمركبي الصغير الذي قد ورثته عن أبي بعدما مات، كنت وقتها عائدا من رحلة صيد طالت ثمانية وأربعون ساعة، لطالما أحسب هذا الصوت أنه صوت الصمود الذي تعلمته أخشاب مركبي من مهارة الصيد، من الممكن أن يظن الإنسان أن الوجود بهذه المدة في عُرضة البحر أمر يسير، إن لم تكن تهوى الصيد فلن تستمتع بمله الذي نسميه نحن ـ الصيادين ـ صبرا، لملمت عُدتي ومتاعي الذي يحمل خمسة أنواع من السمك الطازج، كان المرسى فارغا في تمام الساعة الرابعة صباحا، لا يعلمون بأن هناك مجنونا يعود من رحلات صيده مستنيرا برهط من النجوم ومصباحه الذي لا يكاد ينير وجهه الأسود على بعد سنتيمترات منه قبل خروجهم من بيوتهم إلى العمل بساعتين، ولكم يروقني دوما إعجاب الصيادين بهوسي وجنوني، سرت مسافة طويلة على قدمي إلى أماكن الباعة اللائي نصبن أمتعتهن بالسوق لأمدهن بذخري الذي جلبته في أمتعتي أنا الآخر، ابيع طعاما سئمت من طهيه وأكله، لأشتري بما يقابله من مال طعاما جديدا، ولألبي صراخ طفلي الصغير «روميل» وهو أن أجلب له لعبةً جديدةً .

أنا «إبرام» يروون عني بأني أعذب الناس صوتا في ترانيم الكنيسة التي تُقام في كل احتفال كنسي، اقترب يوم ميلاد السيد المسيح، واقتربت معه تدريبات الاحتفال، كانت أمي تشتهي التمر الأسود فترة حملها بي، ولأن أبي قد مات في هذه الفترة، لم تلقَ من يجود عليها ويشتري لها ذلك التمر، لذلك أخذتُ أنا من اشتهائها خالًا أسودًا على ظهر يدي اليسرى، طلق اللسان وكثير الكلام كما يتضجر مني أصدقائي في جلسات التسامر، وكما يداعبني كلا من راهب الكنيسة والمرنم.

بعد ان انتهيت من البيع والشراء عدت البيت واخترقتني أنظار الناس الذين يقطنون الشارع الذي أسكن به، عيونهم مليئة بالحزن والأسى، دموعهم تمسكت بجفنهم وتماسكت كما تتماسك النجوم المنفجرة بالسماء.

وقفت أمام بيتي فوجدته قد سقط، زلزال أهوج أسقطه فوق رأس « تينا « زوجتي ووالداي « روميل « و « بروسو « لم ينتظر الزلزال مجيئي لنموت سويا، ما الذي يوقفه غير الترميم الذي أجلته أكثر من مرة، سندت على بقايا الجدران التي شهدت على حبي من زوجتي، أخاف أن أنظر إلى الأنقاض فأرى أيديهم الدميمة تطلب مني إغاثتهم.

أحيانا تكون الحياة قاسية لحد بعيد، وكأنها سيف أبى سفك دماء أخرى غير دمائك، واستحل دموعك بنزيفها بدلا من دموع الآخرين، ارتضت أن يكون قلبي قعيد وعاجز، بخلاف الأناس الذين يسكنون «أنجولا» مثلي، قلب مفتت لا يقبل إلا بأن تزداد جروحه أكثر لكي يرتوي، أصبحت الآلام هي ملجأه ومرواه كي لا تلتئم ثقوب روحه البِكر بملذات الحياة.

كان «جيسبر» آنذاك يلف الضباب هالته حينما يذهب لكل صياد يقنعه برحلته، يقنعه بأن يذهب معه فقط قبيل إحداثيات المثلث، بعشر كيلومترات مدة سبع أيام خالصة التكاليف مسبقا، وينتظر ثلاث أيام من نزول «جيسبر» إلى القاع، لو ظهر «جيسبر» وعاد إليه مرة أخرى سيرجعان سويا إلى أنجولا، وإن لم يعد، يرجع الصياد وحيدا إلى أنجولا ليخبرهم أن هناك مواطنا إنجليزيا أراد أن يعرف سر مثلث برمودا، ولكن المثلث كالعادة ابتلعه.

باءت كل محاولات «جيسبر» بالفشل تزامنا مع تدريبات الكنيسة التي تتوج باحتفال السيد المسيح، يئس «جيسبر» من مراوغته مع الصيادين وإقناعهم، لم يترك صيادا واحدا في مدينتي الساحلية إلا وذهب إليه مرتجيا، آملا أن يمنحه الإله منحة منه ليصل إلى مبتغاه، تمنى لو أنه لم يقم بالرحلة من الأصل حتى

أغشى عليه من الإرهاق في ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر، يوم الرب .

***

السماء صافية بلا غيوم، يتلاقى ماء البحر بحد السماء على مرمى البصر وتتوسطهما شمس الشفق التي تغشيها الأمواج تارة وتظهرها تارة أخرى، لترتمي قطرات صغيرة من هياج الموج في أحضان شراع مركب الصياد الصغيرة، الطيور تغني بلحن الصباح المبهج وتتشكل كما الدوائر فوق المركب، والبحر يبتلع ـ كما اعتاد ـ من يهابه، الصياد دائما لا يهاب البحر بقدر ما يهاب أن يعود منه صفر اليدين، تناثرت فوق مركبه ألوان الضوء المعروفة «بقوس قزح «، لينظر فيهم جميعا فيجدهم مرآة له، كل لون منهم أصر على أن يصوره بصورة مختلفة عن شكله المتعارف.

توقفت الرياح فجأة فتوقف معها مركبه حتى بكى، ينظر أمامه فيجد أن الطيور هي الأخرى توقفت عن مداراتها وثبتت في أماكنها، ثلاث أهرامات ظهرن أمامه على مرمى البصر يتوسطهن صليب المسيح الذي صلب عليه، أخذ يهرول إليه ويناجي ربه وسط الماء « يسوع يا رباه، أغثني فإنك تعرف ملاذي ومأواي، إلى أن ترث الأرض أظل أعبدك، أين أنا من هذا العالم، أجب سؤالي «، في تلاقي البحر والسماء تظهر صورة «يسوع» أمامه

فوق صليبه، هرول راكضا فوق الماء لتتبعه الطيور، كلما اقترب نحو الصليب الذي يتوسط الأهرامات الكريستالية ابتعدت الطيور، وكلما ابتعدوا يكبر حجمهم أضعافا، إلى أن ابتلعته قطرات الماء ليسكنها ولتشكل غلافا خارجيا محيطا بجسمه، ليرى ألوان الضوء السبعة تحاط أيضا بغشاء خارجي من دم المسيح المصلوب وكل منهم يحمل بداخله صورة مماثلة له. يبحر داخل الغشاء إلى الأمام، ليعيده الغشاء مرة أخرى إلى موضعه الأول، فبكى مجددا .

استيقظ من نومه على صوت الجرس الذي يُقرع من الكنيسة الأم عقب انتهاء الاحتفال، يظهر القمر أمام عينيه وهو مستلقي بالأرض خارجا من سِنته التي دخل بها رغما عنه ليرى ماتيلدا أمامه في دائرة القمر الفضية تمد له يد العون والمدد، لتنهض به إلى الكنيسة ليغسل خطاياه.

فُتحت له أبواب الكنيسة في أسوار مدينة « لوبيتو « الأنجولية، عندما ساء به حظه بين لجج المحيط الأطلنطي، ما زالت الأهرامات الكريستالية تتوسط صفحة السماء السواداء التي حُجبت بعد إغلاق باب الكنيسة، يتفقد أضواء الكنيسة الخافتة لكي يستقبل صورة المسيح أمام وجهه وحواسه، شعره الأسود الناعم الذي ينقسم من جنبه الأيمن يتمايل مع هواء الكنيسة ورائحتها العبقة، وطول قامته التي تود الوصول إلى حد سماء يسوع المسيح من هول تضجره

وصخب قلبه الشجي، نقاء بشرته وبياضها التي تميزه عن أفراد المدينة السوداء لم تعره الحق في صوته العالي حينما خاطب السيد المسيح، حبال الود التي كانت بينهما قد مزقها حينما ولج من باب الكنيسة حينما كنت أقف أن الآخر أمام صليب السيد، أفصح جيسبر بلسانه قائلا :

ـ ماذا تفعل أنت بعليائك وورثة أرضك في تيه يعمهون، يستندون على ضلع أمهم الهش، وجنون أبيهم الذي أخرجهم من الفردوس، هل لك في أن تصف الجمال الذي تقبع أنت فيه وحدك لتقارنه بالجحيم الذي يحاوطنا جميعا، ما الجدوى من عبادتك وأنت تتركني كذلك، أترك أرضي وموطني لكي تطأ قدماي أراضٍ لا أعرفها، حُلم أبله استفز جوارحي، وقلب أهوج أحبك في ثنيات اللقاء الذي أدخل به إلى الكنيسة أتعبدك، هل لك في أن تشعر ما بداخلي إذا استبقتُ كل أرض أبحث عنك، فلم أجدك، تستكين كما النوادر في غياهب العماء الأزلي، لترتجف أقدامنا ونحن نصلي لك، أي إله تكون، رحيم بنا ! يا للعجب.

استوقفتني تلك الكلمات الفظة التي أسمعها كما لو كان يعبر بها في أذناي عن صلاتي، كنت أصلي للسيد الذي يرعاني وهو في ملكوته القوي، ويتخذ مني خليفة له في الأرض، حينما لمست قدماه تراب القدس، وحينما صلب فغفر عن خطايانا كقربان منه

له، كنت أرى في صورة العذراء مريم زوجتي « تينا « تضحك وتبتسم وكأنها تآنسها في ملذات الفردوس، صوت ما غريب عني أخرجني من صلاتي، لم يكن سوى صوته الجهوري المزعج، رخيم كرياح الشتاء الباردة التي تقتلع الأمان من القلب فتبدله بسوط من الخوف، حتى تمسكت به وأخبرته بأنه لو استمر كذلك في مناجاته العفوية سيخرجونه من الكنيسة.

كانت أول مرة أرى شخصا يحمل بين جفون عينيه رهان الدنيا وحزنها حتى أن الحزن تشكل على تجاعيد وجهه الذي وُلد به بشوشا فشوته نزوات القدر وعزة الدنيا البلهاء، يتصور أمام عيني بتشبيه السيد المسيح وكأنه إبنٌ له على الأرض بيننا، عيونه لم تترك صورة ربه وطرفها يحاصر صلبانه، أي قوة تلك تمنعه أن من أن يخاطب ربه كيفما شاء، الإيمان الذي استوطن قلبه فعمَّر ما به من سمات المسيحية، وروح القدس التي استمدها من بارئه الذي يسكن روحه ويسيطر عليها، أوحى أن يذهب إلى برمودا في شيء من الفناء العظيم، وربت على كتفيه بيديه الطاهرة التي بها ثقوب الصليب، ليمنحا أنفسهما بعضا من الحب الموهوب من الإله إلى الإله، ماء عينيه الذي يسيل على خديه من ضيق نفسه وشُحّ صبره، ورُفات الماضي المديدة بانتحار أمه وموت أبيه هباءً في أطماع

البشر الطغاة، جاء إلى السيد وهو يحمل في صدره أسئلة الماضي والمستقبل، وأجابه السيد حينما أمسكت به، شعرت بأن المسيح جعلنا نتلاقى ليشد يأزري في مصيبتي، ولأشاركه رحلة لا أعلمها .

خرجت به من الكنيسة إلى شوارع «لوبيتو» الساكنة في مخاضع الليل الكحيل، لنرى النجوم وهي تعتلي عرش المسيح في السماء القريبة، لا يتحدث أحد منا إلى الآخر ليُكله من الأمر على عاتقه شيئا يكرهه، أو يزيده خيبة أمل فوق خيبة أمله، ويقطف من وهج حياته شيئا منيرا فتنجلي أنوار قلبه إلى ما لا يدركه ويعلمه .

تمسكت بذراعه وكأنني أستند عليه رغم أني وقتها لم أكن أدرك اسمه الذي وقع على أذني كجرس الكنيسة الذي أحبه .

«جيسبر» هكذا نطقها حينما سألته عن اسمه بالانجليزية، غريب عن بلدتنا فوددت للحظة أن يصبح قريبا لقلبي وهذه معاناة الأشخاص الذين يمتازون بدرجة من قبول الوجه والروح الطلقة الباسمة فيجعلونك تتمنى لو كنت تعرفهم.

«إبرام» هكذا أجبت حينما سألني عن اسمي وأنا ما زلت أستند بذراعه في طرقات «لوبيتو» . قبل أن يسألني عن أي شيء .

ـ إلى أي مكان تريد أن نذهب أيها الشاب .

ـ إلى بيت أبي القديم، لا يسكنه أحد غيري بعدما انتقل إلى رحاب السماء عقب والدتي.

خفت أن يسألني عن حالتي الاجتماعية، وهل أنا متزوج أم لا ولكنه لم يفعل، كان أرقى من أن يسأل من الأصل عن أي شيء، لم يعرف حتى هذه اللحظة لماذا توجه معي إلى بيتي، ولماذا صاحبني إليه، ود لو يعرف أي قدر أرسلني إليه حينما شعرت فجأة أنه صديق حميم لي اجتاحته غربة السفر خارج البلاد فلما عاد إليها مرة أخرى عانق «لوبيتو» وعانقني معها.

سار معي كمن يستنشق من طين الأرض ما يسعه من رحيل عام سيمضي قُدُما نحو الوراء ليستبدله رقم آخر، أعمارنا تتزايد كل يوم ونحن لا ندري، أوقاتنا السعيدة التي تستقر بأبداننا لم نكن نعرف بأنها تأخذ من أعمارنا ما يُقَدَّر لها لتمنحنا سعادتنا المؤقتة. ولما وصلنا إلى البيت أخذ ينظر وكأنه بيته الذي افتقده لعشرات السنين، متأملا لون جدرانه السماوية، ورصائف أرضيته الرمادية، وإضاءته الصفراء الباهته، به الإيمان وبه الدم ،حتى رأيت فيه نسيجا من عباءة المسيح وقتما صلب سقطت أمتعته على الأرض رغما عنه وهو لم ينظر إليها، اعتاد حياة التنقل والترحال ووصف «ماتيلدا» بأنها تعشق الترحال أكثر منه لتكن «ماتيلدا» ورحالتها أول حديثنا في ليلة ميلاد السيد.

ـ لماذا وثقت بي كل هذه الثقة، ألا تخاف بأن أكون لصًا أسرق ما بالمنزل وأقتلك. « قالها جيسبر وهو يحتسي شرابه الدافيء الذي صنعته له.

تبسمت وأنا ألملم ما تبقى من أطباق العشاء ولم أرد، فزاد في حديثه.

ـ حدثني بحق، ألا تخاف بعدما أكرمتني وآويتني، أن أكون رجلا غير الذي تود.

ثَيِّبُ الأفكار وبِكرُها اخترقا حواسي الواهنة بما سمعته منه، وددت لو يعرف في هذه اللحظة أنني أتمنى الموت في كل ليلة لألحق بولداي وزوجتي التي أرى خيالا منها في كل شيء أراه أمامي، لم يدرك ألفاظه الفظة التي خرجت منه بعفوية القول، لم يدرك سوى يد المسيح التي لوحت لنا في سراب عقولنا فجمعت أشلاء أرواحنا من بين ثنايا الروح المتعبة، وبين شظايا الجسد البالي.

قصصت عليه ما حدث لي وهو الذي وقع تزامنا مع وصوله إلى «لوبيتو»، تلك المدينة الساحلية التي قصدها لكي يكون على شيء من الاستقامة لبرمودا، حثيثا إليه، مرتقبا لحلمه، راجيا أن يكون ما في خاطره حقيقيا، سرمديً خياله المتواتر باتصال السحاب الأسود فوق أفقه الشائك، كلانا امتص من ظلمة المحن ما يجعله

متزيا مع الآخر البعيد، وكلانا كابد الوهم الرازح بين شفتيه ليعيده إلى عقله في سرب المشاعر المحلقة فو القلوب المنطفئة، كل ما في الأمر أن الله أرسلنا لنلتقي في مكان يُعبد فيه، لتمتزج أحزاننا فيخرج منها نسيج المستقبل.

«برمودا» تلك الكلمة التي خرجت من فيه حينما سألته إلى أي مكان يود أن يذهب. «برمودا» التي حيرت عقله وقلبه، وطاف إليه بروحه دون سبب يجعله يثق في رحلته سوى حلم غامض فسره هو كيفما شاء حينما سافر إلى القاهرة، شعر أن الإله وضعه في كفة المغامرين ولما وصل إلى ثلاثة أرباع الرحلة سحب يديه المبسوطة إليه.

لمعت عيناه حينما قلت له بأن عملي كصياد مرهق جدا، فقص على مسامعي ما عاناه من ألم بسبب الصيادين الذين فرقوه شططا بينهم، مستهزئين بما يقول.

ـ (إن كنت تبحث عن الموت يا « إبرام « فهذه الرحلة سوف تمنحك ما تتمناه)

ـ (ولماذا أقبلت عليها وأنت تعرف منتهاها)

ـ (شيء من الفضول الذي نزع الشك مني يا « إبرام «)

ـ (فتذهب إليها بقدميك وأنت تعرف أنك ستموت)

ـ (أنا أيضا أريد الموت مثلك فبحثت عن شيء ظننته سيخلدني، ولكني قريبا ما سأعود إلى موطني، بكتابين عن الشرق، مصر والسودان، سأصف أنهما إن سارا في طريقهما المرصوف لهما، سيصبحا قوة العالم الآتية ولن يستطع أحد أن يقف أمامهما أبدا)

فكرت فيما قاله هذا المجنون، نعم كان كذلك بالنسبة إلي، أي جحيم ذلك يقتاده إلى ما لا يعلمه، أي حياة تلك عاشها لترمي به في جوف السراب وتيه الغيب، محض أساطير كاذبة وترهات بالية فكر بها فلن تجديه نفعا إن وصل،المجازفة التي يراها أفضل من الحياة البندولية التي يعيشها أغلب من في هذا العالم، مِلت إلى الاقتناع بما يدور في رأسه، ولكنني ما زلت عند الحاجز الذي يفصل بين عقلينا حتى ذهبت معه إلى النوم، سريران بجانب بعضهما البعض أمامهما نفاذة تطل على الشارع الخارجي، ثبت في مكانه ولم يتحدث بأي شيء عما في جوفه.

أخذ ينظر إلى النافذة حتى وصل إلى السرير الذي سيأويه طوال الليل، عيناه تأبى أن تسكن جفنها، أخذت انظر إليه فلم يرني، ولم يرى أي شيء سوى الضوء الخافت الذي ينعكس على زجاجها الفضي حتى انتفض من فوق سريره مهرولا إلى النافذة ولما اقترب منها أخذ يتفحص ما بها، شعرت لوهلة أنه ممسوس، أو أن به شيئا ما يسكنه ليس ببشر، حتى تأكد لي ما يدور بخاطري للحظات

حينما أخذ يتحدث معها، كنت أظن أنه يتحدث مع النافذة حتى اقتربت منه، وجدته يتحدث بطلاقة وارتياحية شديدة.

ـ «سأعود يا أمي إلى انجلترا مرة أخرى، حلمي أصبح يراودني في كل مكان تطأه قدماي ولا جدوى من اتباع هذا الحلم، بعت منزلنا الذي عشنا به لسنوات عديدة استنادا عليه بأن إرثا لي في مصر، ولما ذهبت مصر، استنتجت أن الإرث لي في برمودا، ذخر الماضي يتملكني حتى آخر نفس لي في هذه الحياة، أعتذر عن كوني فاشل، أمي لماذا تنظري لي بكل هذا الحنان، ألن توبخيني مثلما يفعل البعض، ألن تصفيني بنوبات الفشل التي تحاوطني، لماذا كل هذا الحب، سأعود يا أمي وأنشر كتابا عني كاملا، سأسميه «المستشرق» سأحكي فيه أن العالم أصبح مكانا بذيئا لا يمكننا أن نسكن فيه، لا سند يحتضننا ولا شيء يحنو علينا، حتى أنفسنا تضيق يا أمي بما نهواه»

احتضنته وقتما انتهي من حديثه، صدقت كل ما قاله لأمه التي لم أراها، وأخذ يبكي في عناقي رجل عاش من العمر أربعين عاما مريرة، يستوطن جسدي أنا إبرام صاحب الثلاثين، لم أتعجب من حديثه مع أمه لأنني أنا أيضا كنت أتحدث مع «تينا» زوجتي .

ـ «ألف جنيها إنجليزيا» قلتها لـ«جيسبر» بعدما سكن كل منا سريره مرة أخرى .

نظر إلي بدهشة عجيبة وكأنه لم أعي ما قلته .

ـ «ما تقصد يا إبرام»

ـ «ألف جنيها إنجليزيا نظير استئجار مركبي حتى تصل إلى مثلث برمودا»

ـ «هل أنت جاد فيما تقول».

ـ «نعم جاد فيما أقول، الإنسان لا يعيش سوى مرة واحدة يا سيد «جيسبر» إما أن يكون مُخلدا، وإما أن يندثر من الطين الذي نشأ منه، ألف جنيها إنجليزيا نظيرا للرحلة والطعام والشراب أيضا، والتجهيزات التي سنحتاجها كي نص إلى برمودا»

ـ «ولكنك لن تصل إلى برمودا، ستقف بما يقارب عشرة كيلومترات .....»

ـ «سأصل معك حتى تصل، سأكون معك خطوة بخطوة، وهذا شرطي الوحيد»

ـ « مجنون»

ـ «لست أجن منك أيها المستشرق، ابتداءً من الغد سوف أقوم باستخراج تصريح الملاحة وشراء كافة الأشياء التي سنحتاجها»

رأيته يبتسم لأول مرة، منذ ساعات قليلة مكثنا فيها مع بعضنا البعض، يشعر بأن الحياة هي الأخرى تبتسم له من جديد بعدما أغلقت في وجهه جميع السبل الممكنة لكي يصل إلى مبتغاه، حُلمه الذي قد حلم به مرات عديدة، يراه الآن يتحقق أمامه، لا ينتظر سوى انتهاء التجهيزات فحسب . الإنسان يجب أن يغتنم الفرصة التي وضعها الرب في طريقه، فرصة الموت، انتحار وليس انتحارا، وددت من قبل أن أموت وأصل إلى» تينا « وولداي في العالم الآخر ولكن لماذا أنتحر، أو لماذا أنتحر وأنا بين يدي فرصة واحدة، لكي أكون من الأناس المشهورين في هذه الأرض، وإن مت، سأموت بشرف وأنا أحاول أن أصل إلى شيء غيبي لم يعرفه أحد قبلنا .

لم نمكث كثيرا في تجهيزات الرحلة الشاقة التي سنخوضها إلى برمودا، وفي اليوم المحدد الذي سوف تقلع فيه مركبي من المرسى، أتيت « جيسبر « بخبر لم يكن على باله أو في حساباته من الأصل عرفت أن فريق رحالة ينتمي إلى المملكة المتحدة البريطانية قد أبحر شرق أمريكا من ولاية « فلوريدا» تلك الولاية الساحلية التي تقع على ساحل المحيط الأطلنطي، تلك المركب التي تقل مجموعة من الرحالة البريطانيين انحرفت عن خط سيرها في رحلة ترفيهية بحرية، وانجذبت نحو مثلث برمودا وغرقت .

ـ «هل كانت ماتيلدا معهم»

ـ «لا أعرف يا سيد «جيسبر» ربما كانت معهم وربما لم تكن «

ـ « أتمنى أن يكون هذا الخبر لم يحرك ساكنا بداخلك «

ـ «سيد جيسبر، أنا أعرف أنه لا نجاة من هذه الرحلة، ورغم ذلك سأظل معك إلى الأبد»

كان الخوف يتملكه، ليس من المخاطرة التي سوف نقبل عليها، ولكن من أن تكون « ماتيلدا « ضمن فريق الرحالة التي غرقت مركبهم في قاع المحيط الأطلنطي.

***

السماء صافية بلا غيوم، يتلاقى ماء البحر بحد السماء على مرمى البصر وتتوسطهما شمس الشفق التي تغشيها الأمواج تارة وتظهرها تارة أخرى، لترتمي قطرات صغيرة من هياج الموج في أحضان شراع مركب الصياد الصغيرة، الطيور تغني بلحن الصباح المبهج وتتشكل كما الدوائر فوق المركب، والبحر يبتلع ـ كما اعتاد ـ من يهابه، الصياد دائما لا يهاب البحر بقدر ما يهاب أن يعود منه صفر اليدين، تناثرت فوق مركبه ألوان الضوء المعروفة «بقوس قزح «، لينظر فيهم جميعا فيجدهم مرآة له، كل لون منهم أصر على أن يصوره بصورة مختلفة عن شكله المتعارف.

توقفت الرياح فجأة فتوقف معها مركبه حتى بكى، ينظر أمامه فيجد أن الطيور هي الأخرى توقفت عن مداراتها وثبتت في أماكنها، ثلاث أهرامات ظهرن أمامه على مرمى البصر، قد ولجوا عالمه من منتصف شمس الشفق، في تلاقي البحر والسماء، هرول راكضا فوق الماء لتتبعه الطيور، كلما اقترب نحو الأهرامات ابتعدت الطيور، وكلما ابتعدوا يكبر حجمهم أضعافا، إلى أن ابتلعته قطرات الماء ليسكنها ولتشكل غلافا خارجيا محيطا بجسمه، ليرى ألوان الضوء السبعة تحاط أيضا بغشاء خارجي وكل منهم يحمل بداخله صورة مماثلة له. يبحر داخل الغشاء إلى الأمام، ليعيده الغشاء مرة أخرى إلى موضعه الأول، فبكى مجددا، يغوص بين حبيبات الماء لا ينظر سوى لصوره الهشة التي تسكنها، حتى يرى «ماتيلدا» أمامه غارقة في المحيط ويرى أيضا إبرام يتشبث بيديه اللاتي كبر حجمها أضعافا، أهابه المنظر بقدر ما يهاب إفلات «ماتيلدا»

ـ «ماتيلدا»

استيقظ «جيسبر» صارخا باسمها ونحن في منتصف الطريق إلى مثلث برمودا حتى هرولت نحوه بالماء لكي يروي ظمأه، قص عليّ هذه المرة حلمه المتكرر ثم صمت فجأة وقال لي .

ـ «ماذا لو أن» إبرام» وهو أنت له سبعة نُسخٍ منه يعيشون في عوالم مختلفة، و له فرصة واحدة بأن يقابلهم» .

ـ «لا أفهمك هل هم يشبهونني بهذا القدر .» قلتها له وأنا أوجه المركب نحو الإحداثيات الخاصة ببرمودا .

ـ «لا ليس شبها، بل مثل الشطائر، تذهب لتشتري شطيرة واحدة، ولكن هناك الكثير مما يشبهها «

ـ «إبرام» أصبح مثل الشطائر الجاهزة، قم يا سيد «جيسبر» قم ودعك من هذه الترهات الصباحية»

كان من العجب أن أستمع إلى مثل هذه الكلام، أي «إبرام» هذا الذي له سبعة مثله وهم أيضا « إبرام « كلمات من الصعب أن تدخل إلى الأذهان والعقول، أخذت أفكر فيما قاله «جيسبر» حتى سمعت صوت المحرك وهو يستكين، مكثت في مكاني كالمذهول فسرت حتى وصلت إليه، وجدته يعمل من جديد، غريب هذا المثلث بل وعجيب أيضا، نظرت إلى «جيسبر» فابتسم لي وقال :

ـ «ألم أقل لك لا تأتي معي، تمسكت بي وتوسلت بالمسيح أن تأتي، هذه أولى مراسم الترحيب يا « إبرام «، أنت تخترق عالمه»

كنت سأصيح بضحكات عالية لولا أنه استوقفني « غريق « في هذا المحيط يطفو من فوقه كدت أن أقذف إليه طوق النجاة لولا أن «جيسبر» استوقفني ونهى عما كنت سأفعل، إنها المرة الأول التي ألوم فيها نفسي عن القيام بهذه الرحلة، تعطل المحرك

مرة أخرى، انتظرت هذه المرة بأن يعود لعمله لكنه رفض بإذن من مثلث برمودا، البوصلة التي كنا نهتدي بها أصبح سهمها يدور في كل الأنحاء ولا يثبت في اتجاه واحد فقط، اعتلت الأمواج وأصواتها و «جيسبر» يترنح على قضبان المركب ويتمسك بها خشية أن يسقط غريقا في المحيط قبل أن يصل إلى مبتغاه.

صحت بأعلى صوت لي «جيسبر» فلم يسمعني ظللت أرددها أكثر من مرة فلم يسمع، استند بقضبان المركب واقفا ناظرا لفقاعات غاز الميثان وهي تبتلع مركبي الضعيف، استندت بالقمرة محاولا الوصول إليه، يفتح ذراعيه في شيء من السعادة التي لا أستطيع أن أصفها، كل الماضي يزول أمام عينيه، حلوه ومره، رحلة جديدة لا بد أن تبدأ، ميراث أحلامه وثمراتها تُجنى أمام عينيه، الأمواج تتقاذف بالمركب يمينا ويسارا، والدوامة أحاطت به ريثما وصلت إليه وتشبثت بذراعيه مرتجيا أن يخفضهما ويحتمي بالمركب حتى رفع رأسه للسماء آملا أن تمطر عليه، وأن ترسل من ماء الإله ما يعينه على مشاقه، لملمت الحقائب ونظرت إليه فوجدت رأسه ما زالت بالأعلى فذهبت مع الاتجاه التي تنظر به، رأيت الطيور التي تدور حول المركب، لطالما كان يحدثني عنها أنها تجتاح منامه، ثم قال بصوت عال :

ـ «الطيور يا «إبرام»، الطيور ثبتت في أماكنها، سننجو يا عزيزي، أنا وأنت وماتيلدا»

ـ «السفينة تسير في المياه دون محرك» يعتلي صوت الأمواج أضعافا .

ـ « هي لا تحتاج إلى محرك يا عزيزي، تحتاج إلى روح جديدة تسكنها بدلا من روحها الهشة».

انسحبت السفينة في شيء من العنفوان والقسوة حتى انقسمت إلى نصفين متساويين، مكثت أنا وجيسبر ننظر إلى هذا النصف الذي يبتعد عنا شيئا فشيئا، حتى رأيت فيه زوجتي « تينا « وولداي الصغيرين يلوحان لي من خلاله، كانت ما زالت تبتسم لي، تتزين بلون السماء الأزرق متوجة بتاج الجنة على رأسها، ومزودة أطفالي بأجنحة الملائكة اللائي يطوفون حولي أنا وجيسبر، أخذت أرنم الترانيم التي كنت أشدوها في عيد ميلاد السيد المسيح ونصف المركب الذي نحن عليه يغرق مع تزايد الأمواج .

« كلما رنمت باسمك

كان صوتك في الأعالي

مرنما باسمي

هاك يا يسوع روحي تنتظرك

في ميعاد أعظمِ

يوم نادى الكل ربي

يوم نادى الكل أنتَ

كنت أوقد شمعتي نحو الصليب

رام كل الكون طرا، أن ينادى بالحبيب»

كنت أرنمها ومركبي يغرق نحو برمودا، نحو غيب لا أعلمه، نحو شيء غامض لا نجاة منه، إليك يا برمودا .

***

الفصل الرابع

ـ اعلم أن الأرواح إذا تعانقت في ملكوت الرب، سيُقَدَّر لها أن تتعانق في الأرض تحت أي ظروف، وتحت أي سماء، الإله هو من زرع بداخلك هذا الحب، والإله أيضا هو القادر على أن يجمعك بمن تحب، في طريق غايتك. انظر إلى يد الإله التي تحاوطك ـ

***

طوى «فاليريو» صفحات الكتاب ليأخذ قسطا من الراحة ويستعد لما هو مقبل عليه، صفحات قليلة تفصل بينه وبين معرفة السر الذي عُرف من قِبَل أناس مغمورين بعض الشيء بالنسبة له، قرأ عنهم من خلال كتاب كُتب له هو فقط دونا عن غيره من المستكشفين، أي يقين ذلك الذي قادهم لـ«فاليريو» كي يكتبوا إليه، هو لا يعلم، ولا يدرك أي شيء يجعله صابرا لقراءة هذه الصفحات المملة التي تقص عليه قصة المستكشفين الثلاثة الذين سبقوه منذ نشأة أفكارهم الجنونية لكي يذهبوا إلى الموت بأرجلهم.

أخذ ينظر مجددا إلى بوابة المدينة الغامضة التي يقف أمامها ويحيد بالنظر إلى المدينة المهدمة التي تندثر معالمها خلفه، وإلى الكتاب الذي وجده فلم يقدر أن يعطي طرفه حرية الامتعاض عنه، سبيل رشده الذي غوى عنه، وثراء نفسه الذي اعتلى سقف طموحه، هو أيضا يمتلك من الأحلام ما يجعله يصطف في طابور «جيسبر» الطويل، ولكنها أحلام اليقظة، «فيولا» حبيبته التي تركها في إيطاليا تندب حظها السيء بالزواج منه، كانت مخلصة له إلى أبعد مدى ممكن أن يصفه الإنسان لحبيبته، يرى نفسه في جحود «ماتيلدا» التي يتحدث عنها الكتاب، ويرى «فيولا» في وفاء «جيسبر»، لكم انتظرت أن يرجع عما في خياله ويجلس معها، لم يكن يعرف بأن هذه الرحلة سوف تقربه من حلمه، وتبعده عنها بقدر قربه من برمودا، يتسائل

كيف التقى بماتيلدا تحت سماء المحيط الأطلنطي، ويتسائل أيضا لماذا امتنعت «فيولا» عن احتضانه حينما لملم متاعه وقرر الرحيل عنها ذاهبا إلى ولاية «فلوريدا» للعمل هناك، حتى يقوده قدره للذهاب إلى مثلث برمودا . آه لو استطاع أن يجد لنفسه مبررا واحدا في ظل هذه الغياهب التي تعتلي رأسه فتحجب أنسجة عقله البرزخية عن قرارات القلب الهوجاء، مد يده مرة أخرى لكي يمنع رأسه من التفكير المميت بصفحات «المستشرق» عند محطة الغرق، يريد أن يعرف ما دار أسفل هذه السماء العجيبة، ويريد أن يعرف «جيسبر» أكثر وأكثر، لأنه رأى فيه «فاليريو» المجنون، مثلما رأى فيه «فيولا» الوفية، أي نصاب يجمع بين هاتين الصفتين في حول رجل واحد، فتح الكتاب مجددا، ليكمل قراءته.

***

لم أشعر بأي شيء سوى بيد «جيسبر» وهي توقظني من الإغماءة التي نالت مني بسبب ما مررنا به من عذاب المثلث القاسي، احتضنني بعدما تذكرت تحطيم مركبي العظيم، الذي خاض الرحلة كالجندي الباسل الذي لم يستطع أن يجد لنفسه مخرجا في الحرب، فانتفض ليموت بطلا، ومسح دموعي مواسيا جرحها الدفين بيديه، مازالت صورة «تينا» زوجتي تتأصل بخيالي وذهني حينما تحطمت أخشاب مركبي، ولوحت لي من فوق القُمرة، كنت أحسبها

تفعل ذلك موحية إليّ أنني سألحق بها، ولكن ما زال هناك بقية في العمر، استندت عليه حتى قمت، ولما انتبهت، وجدت إنسانا يجلس مستندا على بوابة ضخمة تصل إلى حد الماء الذي أصبح سماءا للأرض الرملية التي نحن عليها، بوابة عظيمة بها نقوش مكتوبة برموز غريبة، نظرت خلفنا فرأيت مدينة مهدمة يميل أغلب معمارها المحطم إلى اللون الأصفر فنظرت إلى جيسبر، وأوحيت له بإشارة مني أن هذا الإنسان ربما يكون من مراسم الاحتفال بقدومنا إلى مثلث برمودا، شعره مخيف طويل ينزل من فوق رأسه ليغشي عينيه، نحيف جدا، هزيل البنية، فأوحى لي جيسبر بأنه ليس غريبا عنه، بدأ جسم هذا الإنسان يستقيم شيئا فشيء، حتى هرول إليه «جيسبر» واحتضنه، اتبعته لهذا الهيكل حتى نظر إليّ «جيسبر» قائلا:

ـ «ماتيلدا»، الرحلة والحبيبة والصديق يجتمعون معا في مكان واحد يا عزيزي»

سُكبت مني أدمعا كنت غير قادر على إيقافها، ما بال هذا الرجل الذي أصاحبه في رحلته، هل هو الرب، أم ابن له، قد ادخر له الإله من يأس حياته وضياعها ما يجعله الأعظم الآن في لقائه بمحبوبته تحت سماء عالم لم يكن يخطر بباله أن يقابلها فيه، لو أن هناك ألف عاقل أقسم له بأنه سيجتمع مع حب عمره في هذا

المكان، لوصفهم جميعا بالجنون، ولكن «ماتيلدا» متغيرة كثيرا عن الوصف الذي وصفه «جيسبر» لي حينما كنا سويا، اقتربت منه أكثر لكي أنظر إليها، ولكي أساعده على إيقاظها، مددت يدي إلى حقائبنا فأمسكت بزجاجة مياه ووهبته إياها ليوقظها، ولما استفاقت، احتضنته وبكت بعد لحظات صمت طالت، لم تفعل أي شيء سوى أنها احتضنته صامتة، لا يصدر منها أي صوت سوى صوت البكاء المتزايد، لكي يربت على كتفيها ويقبل رأسها باكيا هو الآخر .

ـ «لعثمة لسانك في الخطابات ألذ ألف مرة من لعثمته في الحديث المباشر» انفجر «جيسبر» ضاحكا بعدما قالت له «ماتيلدا» كذلك .

ـ «كنت أخشى كونك لا تقرأيها»

ـ «كنت أخشى ألا أقابلك مرة أخرى، أحبك»

واحتضنته مجددا ومكثت في عناقه طيلة دقائق متتالية لا تسأل عن أي شيء .

ـ «ما الذي أتى بك إلى هنا أيها المخبول»

ـ «القدر يا حبيبتي الذي جرف بنا إلى مأوى واحد، سأقص عليكِ كل شيء، بعدما تقصي أنتِ علينا ما الذي حدث بالتفصيل»

شربت من زجاجة المياه قدرما فرغت، ثم استندت على «جيسبر» وأخذت تقص لنا أن المركب انحرفت عن مسارها دون عمد لتلقى قدرها هنا، كل من كان فوق المركب قفز بطوق نجاته في المحيط عائدا إلى « فلوريدا « مرة أخرى، منهم من غرق ومنهم من نجى، وحينما جائت تقفز إلى المحيط، زلت قدمها من بين القضبان فوقعت مصطدمة بخشب المركب حتى أغشي عليها، ولما استفاقت، وجدت نفسها في هذا المكان أخذت تبحث عن أي شيء يخرجها منه فلم تجد، لمست هذه البوابة بيديها فأضاءت النقوش المرسومة عليها، حتى سمعت من خلف تلك البوابة، «انطق بالكلمة لكي تعبر» لم تكن تعي أي كلمة حتى رأت الأهرامات الكريستالية تعتلي سماءها فعلمت أنها في «مثلث برمودا»، ثم بعد يومين من نقص الطعام والشراب، سمعت صوتا خلف هذه البوابة يقول لها، إن مكثت هنا ثلاثة أيام أخرى سوف تموت لأن المناخ متغير تماما عن مناخ الأرض، وإن كانت صديقة فلتقل كلمة المرور، وإن لم تكن ستموت .

حقيقة لم أفهم أي شيء منها سوى أن «جيسبر» انتفض واقفا، مبتسما، ونهض بـ»ماتيلدا» من نومتها هذه، ونظر إلي فسألته :

«انتهينا، أليس كذلك ؟ قلها ولا تخجل، مركبي حُطّم وبوابة تحتاج إلى كلمة مرور، وماتيلدا، وموت»

ضحك «جيسبر» وربت على كتفي، ثم نظر إلى البوابة وهو يبتسم، وانفجر بصوت عالٍ.

ـ «أطلنطس»

فُتحت الأبواب على مصرعيها لنرى من خلفها عالما مغايرا لما في خيالنا، سندت عليه « ماتيلدا « بكل الحب الذي كان ينتظره في سنين الوحدة والظلمة، ضحكات هستيرية أطلقتها حينما سمعت الصوت الذي يعلن أن البوابة تُفتح لنا، أخذت بالحقائب وتبعته بكل فخر وعزة لهذا العظيم « جيسبر» .

ـ « أظن أن الحياة ستبتسم مع نهاية الرحلة يا سيد « جيسبر»

ـ «بل بدايتها يا إبرام»

***

توقف «فاليريو» عن القراءة حينما علم بكلمة المرور التي وجدها في كتابهم، انطلق نحو المدينة ذات البوابة الضخمة وهو يحمل الكتاب مسرعا إليها، إلى «أطلنطس» الغارقة بين مياه المحيط الأطلنطي، يتفحصها، كان سيندم أشد الندم لو لم يقرأ هذا الكتاب إلى هذه النقطة، شعر في هذه المرة أنه اكتفى من قراءة الكتاب، ولكن شيئا ما أوقفه ليعود إلى صفحاته من جديد، ما الذي حدث لهم جميعا داخل هذه البوابة، ولماذا يستند عليها هيكلين عظميين دون

الثالث؟، أين ذهب ؟ ومن هو من الأصل؟ حتى أثاره الشك مرة أخرى فعاد إلى الكتاب يقرأ ما فيه، يود أن يعرف كل شيء قبل الدخول إلى أطلنطس الغارقة وخوض رحلته الخاصة فيها، يشعر بالسعادة البالغة، لوصوله إلى نصف السر المدفون بين رمل القاع .

***

معمار المدينة متطور جدا عما نشاهده في أمريكا وانجلترا، هكذا قال لي جيسبر حينما دخلنا إلى أطلنطس من بين الحراس الذين رحبوا بنا وأشاروا لنا بالذهاب في عربة التحكم الآلي التي لا يقودها أي فرد من «أفراد» المدينة، لتقلنا بسرعة شديدة بين «الأفراد» طوال القامة الذين يرتدون ملابسا قديمة رغم تطورهم البارع، لوحات إلكترونية في كل مكان في المدينة، المحصول الزراعي هناك يجمع بضغطة زر على لوح زجاجي يسكن أول الحقل، ويعبأ آليا في المخزن المقرر له، وهذا الشيء يزيد من تضخم السكان الذين لا يمتازون بالعمل ولا يمتهنون شيئا ويزيد التباين بين طبقات المجتمع الفقيرة والغنية، الفقيرة التي لا تعمل وتحصل على دخل شهري من مدينة أطلنطس قدره ثلاثمائة عملة ذهبية، وهذه هي المشكلة الكبرى التي تواجه المدينة، لأنهم في عزلة عن العالم أجمع، والثروات تقل تباعا مع مرور السنين .

وبين الطبقة الرأسمالية الغنية التي تدير ألواح التحكم، بشر آليون يقومون بكل شيء في المصانع بأزرار كارثية تفعل كل شيء، إنشاءات جديدة تأخذ من الوقت قدرا ضئيلا لكي تُجهز على أتم وجه، طائرات مروحية صغيرة الحجم تلوّح في أفق المدينة، ومراكب آلية تبحر في أقاصي المدينة حينما ينفك العازل الكهرومغناطيسي الذي يبعد عن مثلث برمودا ليجمّع الماء مرة أخرى، لذلك فإنهم يبنون جدارا عظيما هناك يفصلهم عن المياه التي لو تركوها لأغرقتهم وسببت في شيء من اختلال التوازن الكوني الإلهي.

يحسبون هنالك أوقاتهم من خلف ذلك الجدار الزجاجي العظيم، حينما تسير المراكب الآلية التي صنعوها من الغرب إلى الشرق فهذا يعني أن منتصف اليوم انقضى، ولما تعود إلى الغرب مرة أخرى، هذا يعني بداية يوم جديد لهم . العازل الكهرومغناطيسي الذي يعزل الأرض التي هي في القاع بمياه المحيط الأطلنطي، حدث من إثر ترابط الأهرامات الكريستالية ببعضها البعض ومن الجائز أن فقاعات غاز الميثان التي تبتلع الطائرات والمراكب، لها أثر شديد في ذلك.

ظلت السيارة الآلية في مسيرتها مدة ثلاث دقائق لكي تقلنا إلى وسط المدينة الغارقة، ما زالت «ماتيلدا» تتشبث بذراع «جيسبر» وما زلت أنظر له بعين الفخر والحب، حتى وصلنا إلى منتصف

المدينة، ونزلنا من السيارة لنرى جمال أطلنطس المدفون بين حبيبات الماء، الآثار القديمة التي تصف معالمهم ومعابدهم القديمة تشبه المباني المصرية القديمة في رقي معمارها وعظمتها، ومسلات الفراعنة المصريين التي تقبع في معابدهم ومتاحفهم، تمتاز بعظمة معمارها الثري الذي يغلب عليه اللون الأزرق ،توقفت السيارة، حتى أتى إلينا رجال يرتدون ملابس حربية قديمة، تحدثوا مع جيسبر بلغة غريبة، عرفنا منه بعد ذلك أن «حكيم أطلنطس» يود مقابلتنا بعدما عرف أن هناك من هم من بني البشر قد ولجوا إلى عالم أطلنطس، اقتادونا إلى مكان أشبه بالسجن.

عيوننا لم تزل طرفا عن هذا الجمال الذي يتلون بألون الطيف السبعة، نبوءة «جيسبر» وحلمه القديم الذي يجعلني قد وثقت بكل كلمة قالها أو سيقولها، شعور غريب يتملكني في أن أقول له بأنه عظيم جدا، وأن سعيي وراءه كان مجديا لأبعد حد ممكن أن يوصف له، ولكن «ماتيلدا» الآن تشغل باله كثيرا، ومن العجب أن حالتها تتحسن ويرتد إليها جسدها مرة أخرى.

جميلة حقا كما حدثني عنها «جيسبر» حملها من فوق الأرض لما شعر أنها غير قادرة على السعي، حمل معها نصف حلمه في هذه الدنيا، هي لا تعرف أي قدر يحبها به، كقدر النجوم التي تسكن السماء بالنسبة لنا حينما ننظر إليها بيئسنا فتبدله من اليأس إلى

السرور البهيج، ظل الحال كذلك حتى ما إن وصلنا المكان الذي سننتظر فيه «حكيم أطلنطس» لنرى ما سيقدمه لنا من غيب مكتوم.

ـ «ما كنت لأفضل الرحالة عليك أبدا، غير أنني كنت أود لنفسي قسطا من الراحة للتفكير جديا في الأمر من منظور بعيد»

ـ «أسامحك دون شك»

ـ «هل ما زلت تحبني»

ـ «أحبك أكثر مما عهدتيني يا «ماتيلدا»، أحبك مثلما تحب السماء أن تلمع كل نهار بضياء الشمس، وتنار كل ليلة بنور القمر الذي يعكس ضوء الشمس، أحبك كما يحب « المستشرق» التاريخ الشرقي والعلوم، ما زال قلبي ينطق باسمك في كل ثانية»

ظلا يتبادلا الحب كذلك وأنا أتجنبهما حتى دخل إلى الحجرة رجل طويل القامة أصلع الرأس من الأمام شعره الذي في مؤخرة رأسه طويل ولحيته طويلة جدا، ممسكا بعصا سوداء، ويرتدي ملابس رمادية اللون، خشنة كما الصوف، كان مهيبا أن ترى هذه الموصافات تخترق الأضواء الخافتة للحجرة، ثم أخرج من جيبه لوحة زجاجية، حينما لمسها بإصبعه أنارت، فنظر إلينا وقال :

ـ «جيسبر» الباحث في علوم الشرق، الذي قاده حلمه إلى أطلنطس الغارقة، افتقدتك كثيرا، كنت أنتظر قدومك إلى هنا أسرع من ذلك، ولكن ما سُجل عندي في صحائف الحكماء السابقين أنك ستأتي بمفردك ما الذي جعلك أن تأتي بالمستقبل معك، ما شأنك أنت بما سيحدث بعدك»

نظرنا ثلاثتنا إلى بعضنا، نحاول أن نفك رموز ما قاله الحكيم لنا، ما علاقة المستقبل بـ»جيسبر» الذي هو مذهول بما قاله الحكيم عنه، وجّه الحكيم اللوحة لنا فرأينا فيها المستكشفين اللذين سبقا «جيسبر» إلى المثلث فخبطت آمالهم، والثلاثة الذين سيتبعوه إلى جحيمهم إن فنى جيسبر في هذا المحيط ولم يعد مرة أخرى، أنماط المغامرة تتسم لنا باللذة والانتشاء، قبل أن يكمل الحكيم كلامه إلينا .

ـ «مدة الاستضافة في أطلنطس ثلاثين يوما لكم جميعا، غير أنكم لو صادفتم أحدا غيري لأبقاك وطردهم خارج المدينة يموتون هباءً»

ما زلنا في حالة التيه التي لمستنا من جميع جوارحنا، خرج هذا «الفرد» الغريب خارج الحجرة، قبل أن يعتدل «جيسبر» في جِلسته موضحا لنا ما يقوله هذا الحكيم، يقص لنا أن «بوسيدون» اختلف مع الإله «زيوس» فأسكنه «زيوس» البحر وطرده من السماء، كانت هناك مدينة فائقة في الجمال تتشكل على نحو جزيرة

في منتصف المحيط الأطلنطي أنشأها «بوسيدون» ليحكمها ولتكون ذخرا وجيشا له ضد «زيوس» لو قرر الانقلاب على «زيوس»، ولما حاول الناس أن يصلوا إلى ذلك العلم المحاط بمياه المحيط الأطلنطي، أخفاها الإله «بوسيدون» عن الأنظار وأسكنها أسفل قاع المحيط الأطلنطي، كي لا يصل إليها أحد، جميعهم في أطلنطس ينتظرون تلك اللحظة الموعودة لكي يخرجوا من محبسهم إلى العالم مرة أخرى.

انتهى «جيسبر» من حديثه هذا معلنا أنه سوف يخوض التحدي ويعرف أكثر عما يدور في وهذه الجزيرة، شهور قضاها يبحث عن «أطلنطس» بعدما عرف أن هناك حياة في قاع المحيط الأطلنطي، هي من طوقتنا بخيوط النجاة، حينما عرف الكلمة التي سوف تصلنا بالعالم الآخر، نستنكر جميعنا أن هؤلاء الذين يسكنون الجزيرة الغارقة من جنس البشر، لذلك أطلقنا عليهم لفظ «الأفراد» لكي نفرق بينهم وبين الأناس اللذين يسكنون الأرض .

ـ «هل أنت تؤمن بما تقوله يا «جيسبر» «قالتها «ماتيلدا» في نظرات من الدهشة .

ـ «ما حدث الآن جعلني أؤمن به أكثر مما كنت» .

ـ «وماذا ستفعل».

قام جيسبر واستند على قضبان النافذة التي تتوسط جدار الغرفة ثم أخذ يفتح حقيبته ويخرج سيجارة ليشعلها مفكرا.

ـ «أظن أن الحكيم يطوي سرا في صدره لا أعلمه، سيقوله يوما ما، ومتى قاله، سوف أتبع ما صنعه القدر لي»

انفجر الدخان الخارج من فمه وبدأت ألوان الطيف تتشكل على حواف الغرفة في شيء أشبه بالإنذار، أصوات الأجراس تعتلي، ليدخل حكيم أطلنطس مع الحرس وينتزع السيجارة من جيسبر، ويخمد لهيبها .

ـ «هل جننت يا «جيسبر» النار هنا ممنوعة، إذا حاوطنا دخانها سنموت سويا هنا، أي نوع من العلم يكمن في رأسك لتفعل ذلك « قالها حكيم أطلنطس والغيظ ينفجر منه .

ـ «فقط أردت مقابلتك ثانية فأشعلت سيجارتي»

ـ «وماذا تريد إذا»

ـ «أن أنقسم إلى سبعة ألوان أراني فيهم وأقابل روحي في عالم آخر»

ذلك الحلم مجددا الذي اجتاحه وحرك قلبه من موضعه، من أين له بكل هذه المعلومات، كيف استمد من رأسه كل هذا العلم

البارع ليباري به الحكيم، ظل كذلك حتى ضرب الحكيم بعصاه على الأرض مفكرا فيما يقوله «جيسبر» وأومأ برأسه ان نعم .

في قاع المحيط الأطلنطي تقبع هناك مدينة غارقة تسمى أطلنطس، يتكون فيها شجرة عظيمة، فروعها تصل بك إلى العوالم السبعة، تقع على سور الجزيرة الذي يفصلها عن الماء المندفع تدريجيا بابتعاده عن العازل الكهرومغناطيسي، الإنسان كما الضوء ينقسم أصله إلى سبعة أجزاء، لا يدخل أصل الضوء في تكوين السبعة المنقسمين منه، كذلك الإنسان، له سبعة مثله يسكنون عوالم مختلفة كعالمه الذي يعيش فيه، المدخل إلى هذه العوالم هو الشجرة الساكنة في قلب الجدار الأعظم، إن أراد أحد من من السبعة أن يخترق عالما آخر غير عالمه فسوف يموت، لأنه يُمنع التقاء جسدين لنفس الشخص في بعد واحد من الأبعاد أو في عالم موازي للعالم الذي أتى منه المُخترِق، سبعة مثلك يفعلون ما تفعله في عوالمهم يجلسون كما تجلس أنت الآن، يحتسون من المشروبات الدافئة في نفس الوقت الذي تحتسي فيه أنت مشروبك المفضل، يختلفون عنك في وظائفهم اللاتي يفعلونها .

كذلك قال لنا حكيم أطلنطس، فكرنا جميعا أن هذا هو السر الذي يمنع البشر من أن يصلوا مرة أخرى إلى عالمهم، «المُخترِق دائما مفقود» وأنت تخترق نفسك في بعد موازي لك، لمع خيال

«جيسبر» بما دار بينه وبين الحكيم من حديث شيق غير مفهوم لحد معين، كنت أعرف أن ما يدور في رأس «جيسبر» الآن هو أن يختار عالما يدخله، ولكن يبحث عن حيلة واحدة لكي لا يفنى داخل البعد أو العالم الذي سيخترقه، ذهب الحكيم ووعد «جيسبر» بان يعود له في أسرع وقت ممكن، وجلسنا سويا نفكر في ما قيل، نظرات «ماتيلدا» الساخطة تجاه «جيسبر « التي تود فيهم القول له بأنه لا يفكر سوى في مجده الشخصي، التقتها «جيسبر «، كنت صامتا لأفهم ما يدور، ولأنني أثق في هذا الرجل أكثر مما أثق في نقسي، تحقق أمام عيني كل كلمة قالها منذ خروجنا من الكنيسة، ظللت أراقب الوضع الذي هو مرصود أمامي ولا أفكر في أي شيء .

ـ «تريدنا أن نفترق مرة أخرى يا «جيسبر» أليس كذلك، تريد أن تدخل بقدميك هاتين إلى الموت بعينه «

ـ «أريد أن أصبح عظيما يا حبيبتي»

ـ «كفانا إلى هنا ونرجع إلى بلدتنا»

ـ «لن يستطع أحد منا فعل ذلك»

رُسمت على وجهها ملامح من التعجب والدهشة المريرة، قبل أن يقطعها «جيسبر» بكلماته الفظة وانفعاله الذي ما توقعته أبدا.

ـ «تركتني من قبل لكي تصنعي مجدا شخصيا لكِ هناك، تستنكرين الآن أن أفكر في شيء سأضعه في تاريخي، حافلا بما أتيته من كتب الشرق، ومن استكشاف الشيء الغامض الذي يسكن عالمنا، أنتِ تركتني مرة لتذهبي إلى الرحالة دون عودة، وأنا سأتركك بضعة أيام أكتشف فيهن عالما غامضا وأعود لكِ، من منا الأفضل إذا، أنا أم أنتِ، لست طامعا، بل حالما يحلم بأن يُخَلَّد في هذا العالم الممتد إلى ما لا نعلم، كوني جوار إبرام، هو سيعتني بك»

نهضت «ماتيلدا» من مكانها بجسدها الذي لا يزال هزيلا، دامعة العينين، راجية أن يتراجع «جيسبر» عما قاله لها .

«لن أمكث مع أحد، ولا حتى أنت، سأجتمع مع قدري الذي ينتظرني خارج أسوار هذه المدينة، اذهب حيث شئت يا «جيسبر» فإنك لن تتغير أبدا»

رحلت، تركها «جيسبر» ترحل دون أن يوقفها، عيناه تبوح بكل شيء بداخله، لا يريد أن ينطق بأي شيء مما يدور في خاطره، سابح في عالمه الذي هو مقبل عليه، إلى أي مكان ستذهب هذه الملعونة، لا يعرف، ولكنه مازال مصرا على ما في رأسه، نظر إليّ وكأنه يود أن يسمعها مني أنا الآخر، أن أتركه وأرحل، ولكنني تقدمت بخطوات ثابتة نحوه مبتسما، تشبثت بذراعه تلك المرة موحيا له بأنني لن أتركه، ربت على كتفي وقال:

ـ «الحكيم سيأتي بعد بضعة دقائق ومعه ترياق لعين، سيجعلني أدخل به إلى البعد الذي سيختاره لي»

وأخرج من حقيبته كتابا كان يسجل فيه يومياته، كتب عليه من الخارج المستشرق وأعطاه إلي .

ـ «هذا الكتاب فيه مذكراتي، إضافة على ما قصصته، سجلهم جميعا في كتاب واحد وأسميه المستشرق، وضع عنوانا فرعيا للكتاب كما شئت، واعلم أن المستكشف الرابع الذي سيأتي بعدنا سيُدعى «فاليريو» قرأت اسمه حينما وجّه حكيم أطلنطس لوحه الزجاجي لي، لعلي لا أعود يا «إبرام» ولذلك إن قدر لك وخرجت من هذا المكان فإنك ستمنع من بعد أن يأتي، لأن السر قد كشف بواسطتك، وإن لم تستطع، فضع هذا الكتاب أسفل قاع مثلث برمودا، ظاهرا كي يراه «فاليرو» بوضوح ،وقتها، سوف نقدم للبشرية ما لم يقدموه هم من الأصل لنا»

أتى الحكيم وأخذ «جيسبر» إلى «شجرة العوالم السبع» مر من الوقت المحدد لنا مدة أربعة عشر يوما بحسب ميقات أطلنطس، رأيت فيها معمارها وتعرفت فيها على أناس طيبي القلب مثلنا، لم نعهد لهم بأنهم من الأفراد، ولا أخفيك سرا يا «فاليريو» أنني سرقت لوحا زجاجيا خفية من الحكيم لكي أشاهد «جيسبر» وهو في البعد، حصلت عليه بمساعدة «مالينوس» ذلك الأطلنطي الذي

تعرفت عليه في إقامتي في أطلنطس في تلك الغرفة التي سكنا بها تو نزولنا المدينة، جاءني «مالينوس» بالطعام فبدأت أقص عليه نبأ زوجتي وأمي وولداي وأبي، وأنني لا أملك في هذه الحياة سوى صديق الرحلة والمغامرة «جيسبر» ولما توهجت عيناه، عرض عليّ أن يساعدني في معرفة ما يدور مع « جيسبر» في البعد السادس، الذي اختاره الحكيم له، وذلك لأن طقسه ومناخه وطبيعته يشبهون الأرض لحد كبير، واستحلفني بزوجتي أن لا يخبر الحكيم عما فعله من أجلي، تعاطف معي «مالينوس» هذا ووثق بي فمن المستحيل أن أقوم بخيانة ثقته هذه أبدا، منحني اللوح الزجاجي وأخذ يعلمني كيف أقوم بتشغيله، وكيف أرى به العالم أجمع، كل فرد في أطلنطس يمتلك لوحا مثله وقبل أن أذهب إلى «جيسبر» تفقدت أحوال «ماتيلدا» التي تقبع خلف أسوار المدينة الغارقة، تسوء حالتها يوما تلو يوم، ويتبقى لها أياما معدودة وتفارق الحياة، أشفقت عليها وبدأ الشك يُحفر في قلبي عن قساوة قلب «جيسبر» .

بدأت في تفقد حالات «جيسبر» في داخل البعد في الساعات الأولى من الليل الأطلنطي، حيث يذهب أهلها لإقامة طقوس الصلاة لإلههم الذي أنشأهم، «بوسيدون» كما يعتقدون هم، خرافات يعتقدونها، ولا يعلمون أن الإله الحقيقي أكرم من ذلك «البوسيدون» الذي يصلون له، رأيت «جيسبر» يسبح في عالمه

الذي دخل فيه، أشباه بشر يحاوطونه، وهو أيضا تغير شكله كثيرا، ليلائم المناخ لهذا العالم، يتشكل البعد الذي دخله من القارات التي تمتاز بها الأرض، وحينما نزل إليها، نزل في مدينته «لندن» حيث أنهم وجدوا جثته كـ «آزار» وهو اسمه في البعد طافيا فوق المحيط الأطلنطي بسبب الترياق الذي أعطاه له حكيم أطلنطس كي يتحمل القوة المتضاربة التي ستصيبهما لكي تميز بين الأصل وبين المُخترِق، أغلقت اللوح الزجاجي وأخذت أصلي للإله أنا أيضا لكي يتعطف علينا برحمته، ونصل إلى الأرض جميعنا مرنما بترانيم الكنيسة .

«يا مالك الروح والفؤاد

طال الغياب بقلب العباد

أنول رضاك من العلياء

ويطوف القلب جميع البلاد

ليبحث عنك ويبحث عني

يجدني فيشطر روحي مني

وينهل منك عذب الصفات

فهل يا إلهي أضل الطريق

وأنت القوي السني الصديق»

***

الأبعاد السبعة، وشجرة العوالم التي تصل بنا إلى أمثالنا من العوالم الأخرى، تساؤلات تجتاح أفق «فاليريو» المنتظر لنهاية هذه الرحلة بتشوق وشغف، فكر في أن جيسبر مكث هناك في البعد، وهذين الهيكلين اللذين يستندا على جدار البوابة العظيم هما لـ «إبرام» و «ماتيلدا» ولكن «الراوي» وهو إبرام قد قص عليه أنه يجلس الآن مع «جيسبر» وهم ينازعون الموت، أي سبيل يصل به إلى عالم أطلنطس، ود لو لم يذهب من الأصل نحو المثلث ولكنه فعل.

***

الفصل الخامس

ـ الروح تحلق في ثنايا الملكوت الإلهي، نتلاقى لتتعارف عن كونها باسطة لروحها في أوج الظلمة المحتمة وقت قدوم الليل الدامس ـ

***

أشجار الكافور التي تحاوطه في كل مكان تزعج بصره المنطلق في اليعد السادس، تغيرت موازين العالم أمام عينيه أرواح الخير التي تحاوطه وأرواح الشر التي تود أن تقترب منه، الطيف المنبعث من ظلال الليل الكحيل يرنم به كناقوس الكنيسة وهو يعلن حالة الفرح أو حالة الحزن، نصبوه إلها لهم لما رأوه حيا أمامهم في «لندن السادسة» ورأوه ميتا في قاع المحيط الأطلنطي، هكذا كان «جيسبر» الذي كان يهبط من بيته وقت قدوم الغسق المفتت لخيوط السماء الزرقاء، الألواح الزجاجية التي أراه من خلالها تصفه كشاشة التلفاز التي نراها في بيوت الأغنياء في مدينة «لوبيتو» الأنجولية طويل القامة أكثر مما كان عليه، قوي البنية.

يداه أُصيبتا بالضخامة وعيناه أصيبت بالجحوظ المرعب، اتسم لونه باللون الأحمر كبقية من في البعد الذي يمتاز بالأشجار الكثيفة والحدائق الواسعة، ذهب إلى بيته لكي يقطنه من جديد بعدما مات من اشتراه منه حينما كان يبدأ رحلته، ولما يئس من الطبيعة الزراعية التي شبت في لندن السادسة، راح ينظر إلى «ليونارد» لم ينسَ قط أنه كان شريكه في قلب « ماتيلدا» حبيبتهما، أو حبيبتة «جيسبر» لأنه كما قص عليّ، ما كان يحبها من الأصل.

بل رغب في فتاة تصاحبه أينما حل، رائعة الجمال، فائقة الطلة البهية، ثغرها باسم، وعيناها تلوح في الأفق لكي تستبدل القمر بوجهها الذي ينير أكثر منه.

كنت أتنقل بين «جيسبر» وبين «ماتيدا» من وقت إلى آخر، حتى أن الناس التي تسكن لندن في البعد السادس، بدأوا يسطروا في كتبهم عن الخارق «آزار» ـ جيسبر ـ الذي وجد بجسدين أحدهما منتقلا إلى عالم الرب والآخر ولج إلى عالم البعد، وسطروا عن القديسة «ماتيلدا» الجميلة معشوقة الإله التي قص «آزار» حكايتها لهم ونسي أن يتفوه بحرف عن مثلث برمودا وعن رحلته اعتقادا منه أنه سيعود مرة أخرى إلى أطلنطس آخذا «إبرام» و«ماتيلدا» إلى الأرض مرة أخرى ليقص على الناس ما حدث لهم جميعا في قاع المحيط الأطلنطي، فغاص بشجنه ومرحه بين أسراب الضوء المنبثق من أطلنطس لكي يتزين وجهه بالنور السني، أما ما يحدث خلف أسوار أطلنطس ليس سوى أن «ماتيلدا» تخسر وزنها وجمالها في خارج المدينة، تستند على أسوارها كارهة إياها، مناجية ربها أن ينتشلها من هذا الضيق التي ذهبت إليه دون إرادة منها.

ومازال «آزار» يتعايش كما أنه فرد من «أفراد» البعد السادس، بعدما نصّبوه إلهًا في لندن السادسة، ومازلت أنا «إبرام» صديق الرحلة، يسطر كل ما يراه وكل ما سمعه من «جيسبر» أو «آزار»

بحسب التسمية السادسة له من كتاب تركه إليّ أنقله بصياغتي إلى كتاب كبير أسجل فيه كل شيء مما قص ومما كتب ومما أشاهد .

تحققت أسطورة البعد السادس بأن يوجد فيه جسدين لشخص واحد في العالم يسكنان أرضه، نصبوه إلها لكي يخلصهم من الأخطار التي تتناوب عليهم من الأبعاد الستة الأخرى، آملين بأن مخلصهم «آزار» سوف يشن حربا على جميع العوالم الأخرى وينتصر، هكذا كانت نبوءة المؤرخين في هذا البعد، ولذلك قد استخدمه الحكيم لإنشاء حربا عظيمة يذهب هو فيها ككبش فداء لمخيلته السوداء ولطمعه وانتصارات أخرى مدفونة مع «وحش» سجين في سراديب أطلنطس صاحب الثمانية أرجل الضخمة، هكذا كان اعتقادي في باديء الأمر، ذلك الوحش المكبل الذي لا يعرف أحدا وجهه حتى الآن وهو محذور عليهم أن ينطقوا باسمه في أي محفل، جراء لعنة مدوية حدثت حينما ذكره أحد «الأفراد» في خلوته، هم جميعا كذلك يمتازون جميعا بحفظ التعليمات وتسوية الأنفس فيما بينهم التي تقودهم إلى رضاء الإله، وكتمان السر، والرقي في درجات العبودة الواهية، وحياة «الفرد» منهم لا يهمه أي شيء سوى أن يتقاضى راتبا شهريا من خزائن أطلنطس، كي يستطع أن يجلب لنفسه قُوت يومه هو وأسرته، بعدما حل محلهم تلك الأزرار القذرة بحسب وصف « مالينوس « لي في حكاياه التي تفعل

كل شيء في بدلا منهم في هذه الحياة، تصنع الأدوات، وتجمع المحاصيل، وتخزنها.

«مالينوس» ذلك الخادم الذي سمع مني قصتي، وسمع مني تعبدي للرب، وتعلم مني حبي للسيد المسيح، اعتنق المسيحية سرا، فصنع لنفسه صليبا لكي يتقرب به إلى الإله الحي الذي نراه في الطبيعة وفي خلقه، ما كان يصدق الحكايا التي كنت أقصها عليه عن حياتنا في الأرض، رغم أنه كان يقول لي بأنه يريد أن يذهب بخياله بعيدا عن أسراب الضوء الخافت في هذه المدينة، هذه المدينة كما شرحها لي « مالينوس» ينعكس ضوء الشمس إليها من المياه التي هي الآن سقفا وسماءً لمدينة أطلنطس .

كنا نراقب سويا كل ليلة و»الأفراد» يتعبدون للإله «بوسيدون» ذلك المدعو «آزار « في عالمه الجديد، حتى قام الحكيم الأطلنطي مهرولا إلى الخادم «مالينوس» وأخبره بأن ألواحه الزجاجية منتقصة ذلك اللوح المصنوع حديثا.

تلك الصرعة الصماء التي دوى ذكرها في أنحاء المدينة حينما أُخذ «مالينوس» إلى منصة الإعدام لخيانته حكيم أطلنطس، كنت أنوي أن أذهب إليه وأقبل يداه مرتجيا ألا يفعل ذلك، ولكنني حينما وقفت في الصف الأول الذي يجمع الناس في حشد مهيب أمام منصة الإعدام، أشار لي «مالينوس» ألا أفعل ذلك،

ونظر إلى يمينه حيث الجدار الأعظم، موحيا إلي بأن أهتم بشأن «جيسبر»، قد كره الحياة في هذه المدينة الصاخبة بقوانينها .

صعد الحارس إلى المنصة ثم أمسك بالذراع وقبضه إلى أسفل، حيث السيوف ذات الأشكال الغريبة المنتصبة في زوايا كثيرة حول « مالينوس» تخترقه من كل جزء في جسده، وقفت أمامه لكي أصلي صلاة المفارقين، ريثما أذهب إلى الغرفة مع الحرس مجددا، الطقوس هناك بأن يحضر إعدام الخائن كل أفراد المدينة الغارقة، إنه لأمر مروع، بشع، حينما ترى أمامك فرد من أفراد مدينتك أو عائلتك يعدم بهذه البشاعة والوحشية، سالت دماؤه الزرقاء على جسده الطويل، وتشوهت معالم وجهه الحسنة البهية، بألوان الدم الأزرق، وروعت صرخته كل من في المدينة حتى أنها وصلت إلى إلهم نفسه، وقفت أمامه باكيا، صامدا بعض الشيء، كلما سألني أحد عن سر الدموع التي تنسال على خدي، كنت أجيبه أنه من هول ما رأيت من شيء مفزع، وكانوا يجيبونني، أنه عقاب الخائن، وعقاب السارق الذي لم يحفظ أمانة الحكيم الأطلنطي وسرقها، صليت للمسيح أن يغفر لخطاياه لعله يقابله في ملكوته.

«هاك يا يسوع عبدك

قد آتاك إلى الحِمى

رُب عفوك

ينتشله من الدُنا

هل رآك على الصليب

ويل ذاك المرتجي أمل الطريق

أن يعود خاسئا منك إليك

ضم ذاك العبد، ربي هل أتيت

ضم ذاك العبد، ربي فعلت»

وضح الحكيم لي بعد ذلك أن هناك خطرا سيعم على العالم أجمع إن أكمل «جيسبر» في مسيرته نحو الألوهية، ليست أطلنطس فحسب من سيغتالها هذا الخطر القادم من البعد السادس، ولكن غبار الإثم الناتج من فعلتهما معا هو و «جيسبر» سيغشي على العوالم أجمع، أي حرب تلك يفكر هذا المجنون بأن يخوضها، ستختل موازين العالم أجمع .

أرسل الحكيم إلى «جيسبر» ليعود به الحرس إلى «أطلنطس» مرة أخرى فرفض، بَيد أن حيل الحكيم الذكية لا تزل تداعب رأسه بأن يبعث إليه في اللوح الزجاجي « صورة ماتيلدا « التي ما زالت تنتظر الأقرب لها، إما الموت، وإما «جيسبر»

***

ـ «أي شيء فعل بك كذلك يا عزيزتي، «ماتيلدا» أجيبيني»

لم ترد عليه بأي شيء، ظلت كذلك راجية إياه أن يعود، ولكن غرور آفاقه جعلته ينسى حبيبته التي تصارع الموت خارج أسوار المدينة الغارقة، هو لم يخطيء ولم ينال الصواب حينما تركها كذلك، هو أراد فقط أن يكمل رحلته التي قطع أميالا من أجلها، وأن يتحقق أي شيء في حياته تلك الواهنة، رآها شاحبة الوجه، تستقبل الموت في شيء من البطء والحنان، عيناه اتسمتا بمناهل الدموع، وعقله الثائر هوى أرضا بعد أبهة كان بها فنزعتها منه صورة حبيبته الرائعة «ماتيلدا»

ـ «أغثني يا «جيسبر»، أغثني أرجوك، الموت يأتيني ببطء شديد لا أعلم كيف أتخلص منه، بضع سويعات فقط تفصلني على إيجاد أمي وأبي في الفضاء الإلهي، وأوقات اللذة والفرح في أنهار الفردوس العذبة، ما كان لي أن أتركك، ولكنه عقلي الذي

دائما يختار الفراق أو الرحيل، سامحني يا « جيسبر» سامحني، إنني أحبك، أقسم لك أنني أحبك أكثر مما تحبني» حدثته بلسانها الهزيل وبحنجرتها التي تفتقد المياه رغم أن كل ما يحاوطها في هذا العالم هي مياه مالحة.

مد يده لكي يعبر معها إلى الضفة الأخرى من اللوح الزجاجي، ليجد نفسه خارج أسوار المدينة محتضنا «ماتيلدا» حبيبته، تاركا وراءه مجده الشخصي، اختار للمرة الأخيرة التي وجب عليه أن يختار فيها، تلك الصحبة إلى الفردوس، ظل يصرخ خارج الأسوار بصوته العالي، «أطلنطس»، «أطلنطس» فلم يسمعه أحد، ولم تُفتح أبواب المدينة له وتحتضنه بين ذراعيها اللتين أحبته. لم أتفهم موقف الحكيم في هذه المرة ولكني أردت أن أعرف لماذا فعل ذلك، وأي خطر محتم يمكن أن يحدث في هذه الأيام، ليخرج «جيسبر» من البعد السادس، ويطيح به أرضا.

كذلك خرج، وكذلك ..

***

وجد «فاليريو صفحات الكتاب منتهية إلى هذا الحد، صارعوا الموت أسفل قاع المحيط الأطلنطي، أسفل مثلث برمودا الذي يحجز بينهم وبين العالم، في هذا المكان الذي يقف فيه، قلبهما

اتصلا بخيط من الود، وورود البقاء الأزلية، وها هو اختار حبيبته رغم ما كان فيه وما حصل عليه من سر دفين لا يعرفه إلا هو وإبرام الذي احتجزته أهوال الجدار الأعظم داخل المدينة، اكتفى بأن يعرف السر بنفسه دونا عن أي شيء آخر، يعلم أن «إبرام» سيخرج من هنا إلى عالمهم مرة أخرى ويقص لهم عنه .

إن هناك رجلا، ليس بالقريب منكم ولا بالبعيد، قد قطع ذراع الخوف واستبدله بأجنحة الحرية والنشوة، سار طيلة حياته كما الهائم في طريق عصيب، ليجد حلا وليجد سبيلا يأويه إلى العالم الآخر من نفسه، قد عرف السر ومات، فمات معه لُب السر من البعد السادس، ها هو محتضن «ماتيلدا» بعدما أصبحا هيكلين عظميين، استطعمهما الانتظار، وسلبت أرواحهما في شيء من الحنان «جيسبر» تلو «ماتيلدا». ها هو الآن يعانق أمه في ملكوت السماوات ويصطحب بيده الخلفية «ماتيلدا» رفيقة حياته المريرة.

بكى «فاليريو» وسكبت من عينيه دموع الوحدة وأشلاء الماضي، حتى أخذ يقبل يديهما هما الاثنين الذين استندا على بوابة الجزيرة، وقف منتصبا، ثم أخذ يمسح دموعه ممسكا بالكتاب بيمينه، وصاح بأعلى صوت له ممزوج بالشجن والغل:

«أطلنطس» نطقها وكأنه يخرج من فيه أحلام الماضي وأسراب المستقبل، ففتحت البوابة الأطلنطية، ليجد خلفها رجلا طويل القامة يقف كما حراس المعابد يصافحه قائلا:

ـ «مرحبا بعودتك يا سيد «إبرام»»

نظر فاليريو إلى الكتاب الذي بين يديه في ذهول شديد، ثم أدار لاحظه نحو الحارس مرة أخرى.

ـ «أتقصدني أنا»

ـ «نعم يا سيد «إبرام»، أقصدك أنت، هل يوجد أحد هنا غيرك، الحكيم ينتظرك داخل حجرته»

***

«تمت بحمد الله»

«أنتظر أعينكم اللامعة وهي تقرأ سطور الجزء الثاني»

***

شكر خاص لكل من السادة اللذين أثروا في حياتي :

١ ـ الكاتب : أحمد صلاح النعماني.

٢ ـ المغفور له بإذن الله، الدكتور : إبراهيم الدسوقي بدور .

٣ ـ الكاتب الروائي : أحمد هشام .

٤ ـ ياسمين أيمن

٥ ـ حكمت جمال أبو النصر

٦ ـ الملحن الرائع : عبدالرحمن خليل

٧ ـ الكاتب والقاص : إسلام إبراهيم .

***

الكنزي
ALKANZY